مدنية المسلمين

في إسبانيا

تأليف

الأستاذ جوزيف ماك كيب

ترجمه من الانجليزية

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي



ص. ب : 239 ـ الرباط.
الهاتف: 265.24



تأليف
الأستاذ جوزيف ماك كيب

ترجمه من الانجليزية
الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

الطبعة الثانية



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعـة الثانيـة — 1405 هـ
1985 م

رقم الايداع القانوني 60 / 1985

مقدمة المترجم

وهو الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الحسيني

الحمد لله الذي رفع المسلمين والعرب بنصرهم لدعوة الرسول الكريم محمد ﷺ إلى أعلى درجات الرقي ثم خفضهم بترك هذه الدعوة المباركة إلى أسفل سافلين ولن يعود لهم مجدهم الغابر إلا برجوعهم إلى نصرة الاسلام والاهتداء بهدي النبي عليه الصلاة والسلام أحمده حمد معترف بذنوبي راج رحمة ربي وأصلي وأسلم على خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد النبي الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن اتبعهم باحسان إلى يوم الدين أما بعد :

فإني كنت إبان الحرب العالمية الماضية في مدينة غرناطة ببلاد الأندلس من اسبانية مدة أربعة أشهر وكان الطلاب المغربيون في جامعة غرناطة يترددون علي كل يوم في الفندق الذي كنت نازلا به ويشتكون إلي ما يسمعونه من أساتذتهم من ذم المور وهو اسم المغاربة باللغات الأوروبية ويزعمون أن كل شر موجود في البلاد الاسبانية وكل عادة قبيحة هي مما خلفه المغربيون إبان حكمهم لتلك البلاد وكان عندي كتاب جوزيف ماك كيب المبسوط ومختصره وأعطيتهم أدلة قاهرة على عكس ما زعموا يضربون بها أساتذتهم ثم بدا لي أن أترجم الكتاب المختصر لأن نشره أسهل، فترجمته بعد ما رجعت إلى العراق الذي هو وطني الثاني وقد أقمت فيه خمسا وثلاثين سنة ولا يزال أولادي مقيمين هناك بالبصرة ولولا الثورة الأولى بزعامة عبد الكريم قاسم ما رجعت إلى المغرب ولا فكرت في الخروج من العراق

وقد نفذت نسخ الطبعة الأولى منذ زمان، والتمس مني غير واحد من المغاربة المخلصين لدينهم ووطنهم إعادة نشر هذا الكتاب لعله يوقظهم ويوقظ إخوانهم المسلمين من هذا النوم الثقيل للتخلص من هذا الذل العظيم ولم يطلعوا على المجد المنقطع النظير الذي خلفه لهم آباؤهم وهم عنه غافلون.

والله أسأل أن ينفع به كل من قرأه أو سمعه وهو السميع المجيب.

الاهــداء

إلى الطالب المغربي الوطني،

أيها الولد العزيز أو الأخ الكريم إليك أقدم هذا الكتاب الذي هو خطوة في درس مناقب أسلافك العبقريين الذين ملؤوا الخَافِقَيْنِ مجدا وسؤددا، ورجائي أن تستمر في إحياء مآثرهم وترسم خطاهم والاهتداء بهديهم، فان بذلك وحده مع طاعة الله ورسوله، تقال عثرة المغرب ويرجع إليه عزه الغابر وسعادته السالفة والله يوفقني وإياك لذلك.

أملاه محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

لاشك أن كثيراً من الأوربيين يحملهم التعصب على إخفاء محاسن مدنية العرب والمسلمين ولا سيما المدنية الكبرى التي أوقدوا مصباحها لأول مرة في أوربا نفسها. فتارة يخفون الحسنات ويمرون عليها مرور الكرام باللغو، وتارة يذكرونها إذا اضطروا إلى ذلك ناقصة مشوهة. والمنصفون الخالون من التعصب الممقوت قليلون جدا في هذا الزمان وفيما قبله. ولاشك كذلك أن أدباء الأمم اللاتينية والمؤرخين منهم قد اختصوا بالحظ الأوفر من ذلك الغمط والاخفاء. ولم يقتصروا على ذلك، بل اخذوا يختلقون سيئات وينسبُونها إلى العرب، وهم سادتهم وأساتذتهم طوال ثمانية قرون، ولهم الفضل عليهم وعلى كل من ضرب بسهم في الحضارة الأوربية التي انبثق فَجْرُهَا بعد قرونهم وعصورهم المظلمة عليهم. وفي مقدمة هؤلاء الأمة الاسبانية وجيرانها البرتغاليون واخوانهم الايطاليون، فإن المنصف من هؤلاء أعز من الكبريت الأحمر. وزاد في الطين بلة، وفي الطنبور غنة، أن أدباء إسبانيا ومؤرخيها في هذا العصر قد انتحوا هذه الناحية وسلكوا هذه السبيل الوخيمة. وكأنهم خجلوا من خلو بلادهم من جميع آثار المدنية والحضارة التي ترغب الناس من جميع انحاء المعمورة في زيارتها إلا الآثار العربية الاسلامية، التي استعصت على أيدي البلى وعجزت عن محوها يد الجهل والهمجية التي عبثت بكثير من أمثالها كما سنراه مسطورا في هذا الكتاب مبرهنا عليه بشهادة أساطين التاريخ في أوربا، فسولت لهم أنفسهم أن يعمدوا إلى المغالطة والمكابرة ويضللوا تلامذتهم وقراءهم بقول البهتان على العرب المسلمين وكتمان حسناتهم وخلق السيئات لهم. وما علموا

أنهم بذلك يسيؤون إلى أنفسهم، لأنهم إن قدروا أن يقنعوا صبيانهم بهده الترهات والخزعبلات فلن يستطيعوا أن يقنعوا طلبة التاريخ وأساتذته الأحرار. وقد حملوا في هذا العصر حملة شعواء على العرب الذين أكسبوا أرضهم شرفا بفتحها وتمدينها وجعلها بدر تمام في ظلمة داجية وهي ظلمة أوربا، أوربا الجاهلة في عصورها المظلمة، فكانت كعبة لأهل العلم والأدب يحج إليها طلاب الآداب والفنون من أنحاء أوربا ويغترفون من فيض آداب العرب والمغاربة وعلومهم ويرجعون إلى بلدانهم رافعين مصابيح المدنية وأنوار العرفان، بل حتى في هذا الزمان لولا البقية الباقية من آثار الحضارة العربية ثم المغربية الاسلامية لما غصت ربوع قرطبة وغرناطة واشبيلية وغيرها من مدن الأندلس بالزائرين والزائرات من أوربا وأمريكا ومن سائر أنحاء المعمورة في كل صيف. فكان حقهم أن يشكروا أساتذتهم العرب والمغاربة وأن يتأسفوا على ما جنته أيدي المجرمين منهم على تلك الحضارة الزاهرة في زمان محاكم المحنة والتفتيش وبعده وسترى من ذلك شواهد في هذا الكتاب، لا أنهم يجزونهم جزاء سِنِمَّار ويكتمون فضلهم ويحاولون أن يلصقوا بهم رذائلهم كمصارعة الثيران وغيرها من العادات الهمجية والاخلاق السافلة، فإنهم لم يستحوا أن ينسبوا إلى العرب والمغاربة جميع ما عندهم من الرذائل حتى أنهم نسبوا إليهم أنهم سنوا سنة مصارعة الثيران الوحشية التي اختصت بها اسبانيا في هذا الزمان سبحانك هذا بهتان عظيم. فمتى حدثنا التاريخ أن أحدا من العرب والمغاربة سواء أفي زمان الدولة الأموية الاندلسية أم في زمان دول الطوائف أم في زمان دولة غرناطة النصرية، متى حدثنا التاريخ أن أحدا عقد احتفالا لمناطحة الثيران ومصارعتهم وهل يناطح الثور إلا ثور مثله والعرب والمغاربة لم يكونوا ثيرانا بل انما كانوا رجال علم وحكمة ومنشئي نور وحضارة وأخلاق.

هذه الحملة التي يقوم بها كتاب إسبانيا والمؤلفون منهم في هذا الزمان يستاء منها كل مسلم وكل عربي وكل منصف ولكن أهل المغرب الأقصى هم أشد الناس استياء لأنهم حكموا بلاد اسبانية كلها بعد انقراض ملوك الطوائف ثم لما قامت الدولة النصرية اكتفت الدولة المغربية بحكم شواطيء اسبانيا الشمالية من مالقة إلى رونده إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء وساروا في حكم هذه الشواطيء

سيرة حسنة وكانوا خير عون وحليف لدولة غرناطة العربية المسلمة ولولا إمدادهم وجهادهم ومساعداتهم لتقدمت حادثة غرناطة المؤلمة التي سترى تفاصيلها في آخر هذا الكتاب بأَرْبَعَمَائةِ سنة. ولما كان التواطؤ على الباطل من قبل أمة بأسرها نادر الوقوع فقد وجد في هذا الزمان من الأمة الاسبانية من أدبائها من يصدع بالحق ولا يبالي بغضب الفلنخي[1] ونقمة المتحمسين المغالين في الوطنية فمن هؤلاء الأستاذ الأديب « خيل بن أمية ». وهذا الأديب من الرجال ذوي الأحوال الغريبة والخصال العجيبة فقد ابتلاه الله بحب العرب والمغاربة والصدع بفضائلهم وقرع المبطلين بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة وكان ذلك سببا في تعصب ولاة الأمر عليه وحرمانه من المناصب الأدبية والعلمية فأصابه بسبب ذلك فقر مدقع وتحمل كل ذلك صابراً مخلصا لعقيدته لا يحول عنها ولا يزول وكان صديقا حميماً للأمير شكيب أرسلان. ولما أعلنت الدعاية الاسبانية أنها تريد إحياء المآثر العربية والمغربية والأدب العربي في اسبانيا استشير الأستاذ خيل بن أمية وأشار على الحكومة إذ ذاك أن تدعو الأمير شكيبا وتستنير برأيه فتوجه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله إلى اسبانيا ووضع لهم منهاجا عظيما لاحياء مآثر العرب والمغاربة في إسبانيا لو أتبعته الحكومة الاسبانية لعاد عليها بالخير العميم ولكن المشروع مات وهو جنين وكان دعاية مجردة وقد أشار على الأستاذ بن أمية بعض أصدقائه أن يسافر إلى مصر فإنه يجد هناك من يعرف فضله ويستفيد من أدبه فسافر إلى مصر وبقي فيها مدة فلم يجد فيها سوقا لترويج أدبه وعصبيته العربية فرجع من الرمضاء إلى النار يعني إلى اسبانيا وعزى بعضهم عدم نجاحه إلى أنه يسلك سبيل الفلاسفة المهملين للتأنق في الملبس والتملق في الكلام ولاشك أن هذا عُذْرٌ وَاهٍ ولا يزال الأستاذ خيل بن أمية يعيش في اسبانيا معيشة ضنكا بسبب تعصبه للعرب.

ويوجد أستاذ آخر في جامعة غرناطة نسيت آسمه ليس عنده من الجرأة ما عند خيل بن أمية ولكنه من المنصفين فهو يصرح في المحافل أن كل بلاء وكل

---

(1) الفلنخي : وهو حزب الجنرال فرنكو وهو حزب وطني معاد للشيوعية وهو الذي قام بالثورة الاسبانية وقضى على الجمهورية الشيوعية في اسبانيا.

انحطاط وشقاء أصاب أهل اسبانية سببه القشتاليون[1] فإن آخر عهدنا بالسعادة هو زمان العرب والاسلام فمنذ ذلك اليوم لم نزل في تقهقر وانحطاط إلى يومنا هذا ولن يرجع إلينا عزنا ومجدنا إلا بالرجوع إلى العربية والاسلام فإن درسنا للتأريخ يجبرنا على الاعتراف بهذه الحقيقة.

لأننا إذا أنعمنا النظر في تاريخ اسبانيا نجد عصر العرب والاسلام نورا بين ظلامين، وسعادة بين شقائين، وقد مضت عليها خمسة قرون ونصف قرن لم نزل نمني أنفسنا بما أدركناه من السعادة على أيدي العرب، ولكننا إلى الآن لم نظفر بشيء. ولا أعرف أحداً من أدباء اسبانيا في العصر الحاضر ينصف العرب ويعترف بفضلهم سوى هذين الرجلين.

ومن أجل ذلك وجب على كل من عنده علم بالتأريخ أن يرد باطل هؤلاء المفترين ويلقمهم أحجارهم ويلطمهم بالحقائق لطمات تأتي على بنيان شبهاتهم من القواعد فتجعله قاعا صفصفا.

وقد كنت أحس بهذا الواجب منذ زمان طويل ولا سيما وقد شاهدت ذلك بعيني وسمعته بأذني حين أقمت بإسبانيا بمدينة غرناطة نفسها نحو أربعة أشهر ورأيت نواحي أخرى من إسبانيا وقد كان الطلبة العرب والمغاربة الذين يطلبون العلم في جامعة غرناطة وغيرها يأتونني كل يوم متألمين شاكين مما يسمعونه من رجال الجامعة من تشويه الحقائق التاريخية ورميهم للعرب والمسلمين المغاربة بكل عظيمة من الرذائل حتى إن بعض الطلبة افتتنوا بما زخرفوا من البهتان وصدقوهم في أكاذيبهم فكنت أقذف ببراهين الحق على أباطيل أولئك المضللين وأبين لهم مواضع تلبيسهم وتضليلهم وأرشدهم إلى الكتب التي تريهم الحق حقا والباطل باطلا ولكني رأيت أن أولئك الطلبة وأمثالهم وهم كثير لا يستطيعون أن يخوضوا بحور التأريخ الطامية وأنهم في أشد الحاجة إلى كتاب يجمع لهم خلاصة نافعة في تاريخ

---

(1) القشتاليون وهو جنس اسباني تغلب على غيره من الأجناس الأخرى كالكتلانيين والباسكيين وكانت لهذا الجنس اليد الطولى في محاربة دولة غرناطة العربية المسلمة ومنذ تغلب على هذه الدولة دوخ الاجناس وفرض عليهم لغته القشتالية وآدابها وصبغ جميع القوميات الأخرى بصبغته الخاصة.

لدول الاسلامية باسبانية ويكون في الوقت نفسه حجة بأيديهم يصكون بها وجوه محرفين للتأريخ وكنت أتذاكر يوما مع الأستاذ الأديب العبقري الذي يقل نظيره في الأدباء في الشرق الأدنى والأقصى بل ولا نظير له حتى في الغرب لأنه جمع فضائل الشرق واخلاقه الكريمة وأخذ من أدب الغرب أحسن ما فيه ألا وهو الأستاذ « محمد أحمد » رئيس لجنة الضباط المحامين بالبصرة فأخرج لي كتيبا صغير الحجم اسمه [1] (مدنية العرب في الأندلس) وأباح لي خزانة كتبه العظيمة وأرشدني إلى المصادر الانجليزية وكان معينا لي في بعض المشاكل اللفظية فترجمت الكتاب ووضعت له مقدمة وعلقت عليه حواشي مفيدة وراعيت في الترجمة المحافظة أولا على المعنى، وثانيا على جمال الأسلوب العربي وعدم خدش محياه بالمفردات الأجنبية غير المنسجمة والتراكيب الفاسدة التي يتبرأ منها الأدب العربي الخالص فجاء وافيا بالمراد. قاهرا لأهل العناد. وما أبرىء نفسي ولا ادعي الكمال فقد تفرد به الكبير المتعال. بيد أني بعدما أتممت الكتاب وزينت عرائس أبكاره الفكرية ولوامع أنواره البهية وحسبت أني لا ألبث أن أجد لها خاطبا من ذوي الغيرة على الدين والحق وعشاق الأدب والصدق فكنت كمن يضرب في حديد بارد أو ينفخ في رماد وبقي الكتاب في يدي بائراً، لا يجد له طابعا ولا ناشراً، وكل من رآه يكتفي بالاستحسان اللفظي ولا يُمِرُّ في السعي في نشره ولا يُحْلِي، بل يتركني في عمياء لا أدري أأصبح أم أسري، حتى اطلع على القضية سعادة النبيل الأوحد المجاهد الأمجد الشيخ مظهر الشاوي فهزته الاريحية العربية والنخوة الاسلامية وتبرع لطبع الكتاب بمائة دينار. وكأن الله ادخر له هذه المنقبة، وهيأ له هذه المفخرة، وشاء لحكمته البالغة، وقدرته النافذة، ألا يكون أبا عذرها غيره، وألا يسطر في فاتحة هذا الكتاب غير إسمه، وأن لا يتصدره إلا صورته وكم لهذا الشيخ النبيل من مناقب ومآثر سيسجلها له تاريخ العرب والاسلام في هذا الزمان. الذي صار فيه العلم والأدب متسربلين بذل اليتم، ومتدثرين برداء الظلم، وقد قل ناصرهما وكثر خاذلهما، وعوت عليهما ذئاب الأعداء واستنسر عليهما البغاث واستأسدت عليهما

---

(1) المدنية المغربية في اسبانية.

الضباع وعلى ذلك فان بازاء كل ريح اعصاراً، ولن يعدَمَ الحق انصارا، وقد كان الفضل في عرض هذه القضية عليه للأستاذ المجاهد الذي يقوم في ميدان الذب عن الاسلام مقام أمة أعنى الحاج طه الفياض بارك الله في جهاده ووفقنا واياه للصالحات.

اعتـــذار

قبل أن أنهي هذا التمهيد أؤكد لكل من يقف على هذا الكتاب أو يسمع به من المسيحيين أنني لم أرد به الاساءة إليهم كيف وقد ألفه رجل منهم وطبع في أمريكا ومؤلفه « جوزيف ماك كيب » من أمة ملكها هو رئيس الكنيسة البروستانتية وهذا الرجل لا يعادي المسيحية وحدها بل يعادي الاسلام ويطعن فيه في هذا الكتاب وغيره ولم أغير شيئاً مما كتبه بل ترجمته على علاته ثم نبهت على ما يخص الاسلام من المطاعن في الحواشي وتركت ما يخص المسيحية لأهلها. فإن لهم أقلاما طويلة وليسوا بحاجة إلى من يدافع عنهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسيني

حرر ج جامعة برلين

مقدمة وجيزة

مضت تلك الساعات السعيدة التي كنت أقضيها صباح بعض الايام بصحبة صديقي العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي قبل سنين عديدة وأساعده على ترجمة كتاب « مدنية المور (أي المغاربة في اسبانية) وكان ذلك كما اتذكر الآن بضع سنين قبل الحرب الأخيرة. سافر صديقي إلى المانيا قبل نشوب تلك المصيبة الكبرى وانقطعت الأخبار بيننا فيما بعد ولم أعرف ما جرى على هذا الكتاب الذي دَبَّجَهُ يَرَاعُ (جوزيف ماك كيب) وترجمه الاستاذ العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي وانتهت الحرب وسررنا بزيارة الصديق الفاضل وكان قد نجا من ألمانيا بأعجوبة والحمد الله ولكنه أخبرني أن الكتاب لم يطبع بعد وأن النسخة الوحيدة منه التي كانت توجد لديه قد ذهبت طعمة للقصف الجوي مع بقية كتبه وأثاثه وأمواله. لا أقدر على وصف السرور الذي ابرزه الدكتور لما أخبرته أنه توجد لدي نسخة أو نسختان من تلك الرسالة التي كانت عبارة عن ثمرة اتعابه ونتيجة تدقيقاته خلال الساعات التي كنا نقضيها سوية وكما علمت انه تشبث بطبعها ولم ينجح إلا في هذه الأيام وذلك بفضل المحسن الكبير والوطني الغيور السيد مظهر الشاوي الذي وضع مائة دينار لهذا الغرض تحت تصرفه وتصرف الأستاذ الفاضل السيد محمد طه الفياض صاحب جريدة السجل الغراء (الذى لا أغالي لو قلت أنه هو الوحيد بين الصحفيين في إعلاء كلمة الاسلام والوطنية الطاهرة ونشر المباديء الدينية المقدسة). وأما ما قام به المحسن مظهر الشاوي من

الأعمال النافعة والأمور المفيدة للوطن وأهل الوطن فهي أشهر من ان تذكر ولا يمكن تعدادها في هذه العجالة ونسأل الله أن يكثر أمثاله بين الشرقيين عموما والمسلمين على الأخص وأما خدمات صديقي العلامة الفاضل الدكتور محمد تقي الدين الهلالي للدين والأدب والتاريخ والفقه فلا ينكرها إلا من في قلبه مرض حيث قد ضحى هذا الرجل الفاضل بكافة قواه البدنية وخاطر بنفسه في الهند وافغانستان والمملكة المغربية واسبانيا والمانيا في ترويج المعلومات النافعة والاخلاق الاسلامية الصحيحة وقد فقد أثمن ما يملكه وهو بصره من فرط الجهد والمطالعة والانهماك في التدقيق. لقد تشرفت بمعرفته منذ أكثر من خمس عشرة سنة ولا أقول جزافا إذا بينت إلى القارىء الكريم أن الدكتور محمداً تقي الدين الهلالي من الافذاذ الذين يعتقدون بأنهم أملاكٌ مُشَاعَةٌ لشعبه وإنه بمثابة شمعة تذاب كي تنور محيطها.

ان مؤلف الرسالة ــ جوزف ماك كيب ــ علم من أعلام الفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية والاجتماعية وغيرها ويكفيك أنه قد صنف مائتي مجلد في العلوم المختلفة وترجم ثلاثين كتابا وألقى ألفي محاضرة وإن آخر ما ألفه في هذه السنة كتاب يسمى ب « دائرة المعارف لمن يحكم العقل »[1] وقد جاء هذا السفر الجليل آية في التدقيقات العلمية والتنقيبات التاريخية ويحتوى على ما يقارب ألفا وثمانمائةِ موضوع وكل منها مدعم بالمتون المعتبرة والأسانيد التي يذكرها في آخر المقال. الحقيقة أن الانسان يتعجب ويتحير من سعة معلومات هذا المصنف الكبير الذي وصفه الامريكيون ب « أكبر عالم في العالم » ــ كان هذا الرجل راهبا في أحد الأديرة وترك الرهبانية بعد أن قضى اثنتي عشرة سنة فيها وألف رسالة « اثنتي عشرة عاما في ديْر » وكتب ما كتب في ذلك الموضوع ــ لسنا هنا بصدد البيان عن معتقداته بل إنما نود أن نعرفه إلى القارىء فقط ونكتفي بالقول أنه بنفسه « دائرة معارف ناطقة متحركة » ونضيف على ذلك أنه أكثر تعصبا

---

(1) A Rationalist Encyclopaedia

للمدنية الاسلامية في اسبانية من كثير من المسلمين أنفسهم ولكنه منصف لا يتعدى حدود الانصاف والحقيقة ولا يقول شيئا إلا ما تؤيد البيانات والمستندات المعتبرة.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نكرر الثناء على المترجم المبجل وعلى المحسن الفاضل وصاحب السجل الذين سببوا ادخال هذا الكتاب الجليل إلى حظيرة خزانة الأدب وكم كنا نود أن تكثر أمثال هذه الرسالات التاريخية في المكتبة العربية.

البصرة　　　　كانون الأول 1949　　　　محمد أحمد (المحامي)

ترجمة المؤلف

ينبغي لنا أن نذكر بين يدي الكتاب شيئا في التعريف فنقول :

هو العالم الشهير، المصنف الكبير الطائر الصيت في الدنيا كلها جوزف ماك كيب (Joseph Macabe) ولد في سنة 1867 م وكان أبوه كاثليكيا وأمه انتقلت من الكاثليكية إلى البروستانتية، فأرسلاه إلى دير كثليكي وتعلم مبادىء العلوم هناك. وكانت أمه ترى في المنام أن ابنها سيكون قسيسا. فانخرط في سلك الرهبان وسنه إذ ذاك خمسة عشر عاما. ويخبر عن نفسه أن المبادىء التي حصلها لذلك العهد كانت تافهة جدا رَدِيَّةً، لأنها كانت معجونة من اللاتينية ولكن في أسفل دركاتها وأقبح لهجاتها. وقليل من تاريخ المذهب الكاثليكي، والمنطق بالشكل الذي كان يعلم به قبل مائة سنة، وما وراء الطبيعة بالشكل الذي كان يعلم به قبل سبعة قرون، والأخلاق بالشكل الذي كانت تعلم به في الأزمان الغابرة، حتى الفلسفة التي كان ماك كيب يتعلمها في جامعة لوفين Leuvain التي يبالغون في مدحها كانت بالية، ولم يكن هناك في الدير أثر للزهد في الأكل والشرب : بل كان الأمر بخلاف ذلك، لأن التلاميذ كانوا يجبرون على شرب الجِعَةِ والكلاريت (نوعان من المسكرات) كل يوم. وهذان المشروبان مع الطعام النفيس الذي كان وافرا في الدير أثرت في معدته. ويقول ماك كيب : — « ان الأثر الوحيد الذي تركه الدير في نفسي من البركات والتقديس هو اختلال في معدتي ». ولكن يظهر أن تلك الاقامة نفعته من جهة أخرى اذ صار عالما بما يجري في خبايا النظام الكاثليكي. فترك الدير بعد أن قضى فيه اثنتى عشرة سنة وألف كتابه الشهير « اثنتا عشرة سنة قضيتها في الدير ». ومن ذلك الحين صار عدوا مبينا للمذهب

الكاثليكي بل لجميع الاديان. وأخذ يمضي أوقاته في البحث والتنقيب والفكر والتحقيق ويؤلف الكتب فبلغت مؤلفاته حتى الآن 250 كتاباً. وألقى ألوفا من المحاضرات. سافر إلى نواحي أميركا وميكسيكو وأوستراليا ونيوزيلاندا لالقاء المحاضرات. هذا عدا المحاضرات التي ألقاها في ربوع بلاده الانكليزية. والمناظرات التي ناظر فيها كبار المفكرين مثل سركوننند إيل Cauon Doyle في الأمور الروحانية وهو فارس فذ في ميدان المناظرة يكثر من إيراد البراهين ويتفنن في العبارات البليغة التي تخلب الباب المستمعين وتجعلهم لآرائه مذعنين. وعلى ذلك فالشهرة الواسعة التي حصلها جاءته من ناحية الكتابة والتأليف، لأن المزية الخاصة التي يمتاز بها هي عدم حصر افكاره واستقراءاته في شعبة واحدة من العلم، بل جعل جميع العلوم أمامه واتخذها مقاصد للبحث والتحقيق. فصار عارفا لجميعها. وله براعة فائقة في الفلسفة والتأريخ ومعرفة بالأدبيات وإحاطة بجميع النهضات العلمية والفكرية في تاريخ البشر. وقد تكلم في المدنيات القديمة بل في العصور التي قبل التاريخ بسهولة كأنما يذكر أمورا شاهدها في زمانه.

وأما في المباحث الدينية وتواريخ الأديان فيمكننا أن نقول إن ذلك من اختصاصه ونظرا لعلمه الغزير بالتاريخ والعلوم أصبح منتقدا عظيما في هذا المقصد وناهيك ما يقول في شأن الكنيسة النصرانية وننقل لك كلامه بلفظه : —

إن ما عملته الكنيسة في ألف سنة وهي مدة حكمها وسلطانها كان ضئيلا حتى أن أكثر من تسعة وتسعين في كل مائة من الناس لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة فإذا أراد النصارى أن يفتخروا بهذا التسجيل التاريخي فمرحباً ! »
ومن مزاياه أنه لا يقنع بالأقوال المجردة بل يحقق المدعياتِ كلها بنفسه ويستنطق البراهين وينقب في أعماق التاريخ ثم يحكم. وهو متضلع في اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية وسواها من اللغات الأوربية. وعلاوة على ما ألف من الكتب في بلاده « انكلند » ذهب إلى أميركا في سنة 1924 واتفق مع هولدمن جوليس (Hildhmen Julius) الناشر الشهير أن يؤلف له خمسين كتابا من الأجزاء الصغيرة ينشرها له. ولكن هولدمن يقول في سنة 1934 : أن جوزيف ماك كيب ألف أكثر من سبعين كتابا في فنون مختلفة. وألف أيضا كتبا كبارا في تلك المدة

ويمكنك أن تعرف أهمية هذه الكتب إذ ذكرنا لك بعضها هنا. وهي : —

(1)	مفتاح التهذيب	أربعون جزءاً
(2)	كتاب الأخلاق	اثنا عشر جزءاً
(3)	مفتاح الحب والزواج	ثمانية من المجلدات
(4)	الرجال المائة الذين حركوا العالم	سبعة عشر جزءاً
(5)	الحكاية الحقيقية عن الكنيسة الكاثليكية	ستة من المجلدات الكبار
(6)	خلاصة علوم هذا العصر	جزء واحد
(7)	أفكار كبيرة بعبارات سهلة	جزء واحد
(8)	حقيقة الكنيسة الكاثليكية	جزء واحد
(9)	الكتب المحرمة من قبل الكنيسة اللاتينية	جزء واحد
(10)	الخرافات العامة	جزء واحد
(11)	صعود الآلهة وانحطاطها	ستة أجزاء
(12)	خزانة كتب الالتجاء إلى العقل	أتم منه أربعة أجزاء

وقد بجله الأمريكيون حتى جعلوه أكبر عالم في الدنيا. وهو يحسن عشر لغات. وقد كتبوا كثيرا في التنويه به. يقول أحد الكتاب البارعين ان مواجهة جوزيف ماك كيب مثل الصدمة الكهربائية.

أما كتابنا هذا « المدنية المغربية في اسبانيا » فهو كما ستراه فريد في بابه على صغر حجمه يحتوي فوائد جمة وأخبارا مهمة في ناحية من نواحي عظمة أهل اسبانية بغاية الانصاف والبعد عن التأثر بالعصبية الدينية أو الوطنية. وقلما تجد مثل ذلك فيما كتبه الأوربيون وعِبدانهم المقلدون لهم الامعات من الشرقيين، حتى انطمست معالم الحقيقة بمكايد الكنيسة الغربية ودسائسها أو كادت ولو أردنا أن نجمع كلما قاله هذا المؤلف في تضاعيف كتبه في مدنية أهل اسبانية لأجتمع لنا من ذلك مجلد كبير. ولكننا اخترنا هذا الجزء الصغير لأنه جامع ملخص اتى على مهم في الموضوع. أما انصافه في الحكم فيمكننا أن نستشهد عليه بما نذكر أدناه : قال المؤلف في تصنيفه المشار إليه اعلاه « خلاصة علوم هذا العصر : —

لاريب أن القرون الطوال التي اتسعت فيها هذه المدنية المحمدية من البرتغال غربا إلى بلاد فارس والهند شرقا، كانت تتخللها بعض الفترات. وهي الأوقات التي يكون الحكم والسلطان فيها للمتعصبين. ولكن الحقيقة المثلى التي يتجاهلها مؤرخونا في تآليفهم بصورة قطيعة هي أنه من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر وصلت الفنون والآداب والانسانية عند (المور) إلى المستوى الذي كانت قد وصلته في المدنية اليونانية الرومية ان لم نقل إنها فاقتها وسأعرض للفنون والآداب فيما بعد ولكن لابد لي أن أذكر هنا ما ذكرته في مؤلفاتي أن في المدنية التي تسمى مورية، ارتقى النوع البشري في إسبانيا خلال قرون عديدة إلى أعلى درجات الهناء والغبطة والسعادة والشغف العام بكسب العلوم والفنون والاحسان إلى البؤساء وترقية الفنون والتهذيب. ولعله إلى هذه الأيام الأخيرة لم تطلع الشمس على أمة أسعد ولا أهنأ ولا أرغد عيشا ولا أكثر رغبة في التمتع بالجمال والعلوم والأعمال الجيدة من المغربيين في إسبانية ولا مراء في أن مؤرخينا لا يبسطون القول في هذا الفصل الذي هو أهم فصل في التاريخ لأسباب أربعةٍ :

أولها، أن حال إسبانية وصقلية والشرق من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر هي ضد ونقيض لحال أوربة النصرانية القذرة إلى حد لا يتصور.

الثاني، مع أن العرب ابتدأ رقيهم من دركة متوحشة مثل القوط والفنداليين فقد شجعتهم بقايا مدنية يونان وفارس على أن يشيدوا مدنية زاهية في أقل من قرنين والحال أن النصارى قطان أوربة تحت السلطان (البابوات) البوابي مضت عليهم سبعة قرون قبل أن يصلوا إلى درجة هي أدنى بكثير من من مستوى العرب.

الثالث، أن هؤلاء الذين شيدوا هذه المدنية الزاهرة كانوا من المتساهلين في الدين، ولم يكونوا من المتعصبين القشريين.

الرابع، كما سنبسطه في هذا الكتاب أن مدنية أولئك العرب كانت مقدمة للتجديد والترق الذي نحن فيه اليوم. إلا أني أختصر القول هنا فأقول : إن هذه المدنية هدمها المتعصبون من نصارى اسبانية في بلادهم والأتراك في الشرق في بدء نهوضهم إلى خدمة الاسلام. ثم قال : لقد مضى ألف سنة إلا قليلا على الناس بعد اندراس مدنية العرب قبل أن يوجد كتاب يستحق إضاعة الوقت في قراءته

وبعبارة أخرى كانت للعرب في زمان مجدهم كتب قيمة فلما مضوا وأحرق أكثر تصانيفهم بقي الناس ألف سنة تقريبا لا يجدون كتابا يستحق أن يقرأ. ثم قال: قال استوارت في كتابه « تاريخ الآداب العربية » : كان في اسبانية ألفا ألف مصنف ولم يصلنا من كتبهم الا شيء قليل. وقال المؤلف في الجزء السادس من كتابه « الأخلاق » : ــ « كان في المملكة الواسعة الاسلامية التي امتدت من البرتغال غربا إلى كردستان شرقا وكانت على وشك الاتساع إلى الهند كانت هناك طوائف عشرين دينا منقسمين إلى مائة مذهب. وكلهم كانوا يعيشون بسلام وتسامح. والخراج القليل الذي كان يفرض على غير المسلمين كان في الحقيقة مددا لبيت المال، ولم يكن بِقَصْدِ التعالي عليهم وإهانتهم. والخلفاء كانوا يعلمون كيف كان النصارى يعاملون المنحرفين عن الدين في أوربة فحق لهم أن يفتخروا بأنهم أفضل وأعدل ملوك الأرض » وقال في الجزء نفسه بصدد البحث في تاريخ المسلمين في مصر. « وبعد بضع سنين من فتح المحمديين للأسكندرية ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة. فاضطر العرب إلى هدم جانب من تلك البلدة الجميلة ولكن حتى مؤرخو النصارى الحاضرون يعترفون بأنهم لم يقصدوا بذلك تخريبا وانتقاما وانما ألجأهم إليه المحافظة على البلدة. أما الرواية القائلة بأن العرب وجدوا من بقايا خزانة الاسكندرية كتبا كثيرة فأخذوا يوقدون بها أتاتين الحمامات مدة ستة أشهر فالمؤرخون اليوم يرون ذلك حديث خرافة. ولم توجد هذه الرواية في كلام أي مؤرخ إلا بعد مضي ستة قرون من فتح العرب مصر. وقد بحث أ. ج. بتلر (A. J. Butler) بحثا دقيقا في هذه المسألة في كتابه « فتح العرب مصر .... وختم كلامه بأن هذه الرواية أسطورة حقيرة. وليس لها أساس تاريخي البتة. وقد ذكر استانلي بول هذا الكلام نفسه في الجزء السادس من كتاب « تاريخ مصر تأليف فليندرس بتري (Flinders Petrie) وليس هناك بينة على أنه كانت بالاسكندرية خزانة كتب عمومية في ذلك الزمان. والظاهر أن النصارى كانوا قد أحرقوا جميع الكتب وأتلفوا ما بقي منها تدريجيا في مدة طويلة قبل ذلك بزمان. » وقال المؤلف في الجزء نفسه : « لا اعتقد ان الرق كان من سيئات[1] المور أو العرب، لأن عبيدهم كانوا

---

(1) المقصود بالمور المغاربة.

أسعد حالا من معظم سكان أوربة. وإذا علمنا أن النصرانية لبثت ثمانية أو تسعة قرون تذم الرق ثم باركت على استرقاق السود فكيف ننتظر من العرب أن يبطلوا الرق في ثلث تلك المدة. » ولعل المؤلف يشير بقوله « إلى ما تقرر : أن النخاسة كانت شائعة في جميع بلاد أوربة إلى أوائل القرن التاسع عشر. وقال المؤلف في الجزء المذكور : « ولست الآن بصدد التحقيق في آدابهم في النكاح ولكني من حيث أنا مؤرخ في الاخلاق أستنكر ما يقول بعض من لم يحقق الأمر من عامة المؤلفين : أن العرب كانت أخلاقهم في تلك الناحية فاسدة وأنهم كانوا مستهترين هادمين لصلاح أهل مُجْتَمَعِهِمْ، فان الحقائق التاريخية تكذب هذا القول. وكل كتاب معتبر في المدنية المحمدية بل حتى (الفصول القليلة من تاريخ القرون الوسطى) المطبوع في كمبرج، وهي في الحقيقة قسمة ضيزى لناحية مهمة كهذه، تشهد أن العرب كانوا يعطون الحياة حقها. وكانوا خير أمة أخرجت للناس من أول التاريخ إلى الآن. وإذ قد عرفت أخلاق العرب واعتدالهم في أمور المباشرة فدونك لمحة تبين لك أخلاق رجال الكنيسة فضلا عن غيرهم من الاوربيين في ذلك الزمان : ـــ

إن عمل قوم لوط كان شائعا في ذلك الزمان في جميع أنحاء أوربة. وفي أواسط القرن الحادي عشر الذي هو آخر زمان نتكلم في شؤونه في هذا الجزء رأى الكاردينال داميان أن اللواط شائع بين القسيسين والرهبان في ايطالية وبلغ الأمر إلى أنه ألف كتابا في ذلك وأرسله إلى البابا (ليو التاسع) (Leo IX) والتمس منه أن يتدارك ذلك الأمر ويأخذ في قطع ذرائعه وأسبابه. يستغيث به أن يعاقب كل راهب أو قسيس يثبت عليه اللواط بحلق رأسه والبصاق في وجهه وحبسه في حجرة مظلمة ولما وصل كتابه إلى البابا تقبله وأظهر الارتياح به إلا أنه رأى أن لا يبلغ العقاب بأولئك الفساق إلى الحد الذي اقترحه الكاردينال المذكور ولكن يعاقبون بما هو أخف وأليق بالرحمة والشفقة. فبقيت تلك الفاحشة جارية كما كانت واسم كتاب داميان الذي أهداه إلى البابا « عمورة » وهو اسم قرية قوم لوط. وفي كتاب داميان ما هو أدهى وأمر مما يدل على تمام الهمجية وهو الزنا بالمحارم وأنه كان شائعا هناك أيضا. ولهم أعمال من وراء ذلك كانوا لها عاملين هي الغاية في الخسة والهمجية نضرب عنها صفحا لأن القلم يخجل عن ذكرها. اه.. من الجزء

الخامس من كتاب الاخلاق. وهذه لمحة ونموذج من غوص هذا الرجل على الحقائق التاريخية واستخراجه مكنون ما في أحشائها. ومن يقرأ الكتب الانكليزية يمكنه أن يطلع من ذلك على العجب العجاب. وليعلم من يقف عليه انه ليس قصدنا بما ترجمناه هنا الاساءة إلى أحد من الناس كائنا من كان، وانما نريد أن نطلع قراء اللغة العربية على ما هو رائج ومتداول في النوادي الانكليزية والأمريكية وليس ذلك بسر يمكن إخفاؤه، كيف وقد طبعت منه مئآت الألوف وعرفه الهادي والبادي. فهذا عذرنا « والعذر عند كرام الناس مقبول ».



المدنية المغربية في إسبانية

تأليف جوزف ماك كيب

الفصل الأول
الهلال والصليب

لقد أطلقت لفظ « العصور المظلمة » كسائر المؤرخين في تؤيليفي هذا على أكثر عصور الممالك النصرانية انحطاطا على العموم وخصوصا للقرن العاشر المسيحي. تنصرت الممالك الأوربية قبل ذلك بخمسة قرون أو ستة قرون تقريبا مضت من يوم تغلب (البابوات) والأساقفة على ارادة الملوك وحملوهم على ابادة كل مصدر من مصادر الالهام يخالفهم أو يباريهم. فاغلقوا المدارس والمعابد وقضوا على العلم والأدب. وكانت غابات التيوتونيين من الشمال على أوربة قد انقطعت إلا ما كان من أهل الشواطىء الغربية من أوربة فانهم كانوا إلى ذلك العهد يقاسون هجمات رجال الشمال الأقصى.

وقد رأينا كيف كانت الممالك النصرانية.

واذا استثنينا بعض المواضع في أوربة كالبندقية إذ كان فيها بقية تافهة اصطلاحية من علم اليونان تخفف من شرهم وهمجيتهم فإن أوربة كلها كانت في تباب وخراب اقتصاديا واجتماعيا وعقليا. وكان ذلك العهد أشد سوادا وظلمة وانحطاطا من سائر عصور البابوية. ومن ذلك الزمان أطلق الاساقفة القسيسون والرهبان والراهبات الأعنة في الدعارة والشهوات البهمية ولم يكونوا في ذلك الزمان يتسترون حتى بجلباب النفاق. ولو أن غنيا مليونيا من أهل هذا العصر كان في ذلك الزمان لقدر ان يشتري مملكة بأسرها. وكان تسعة وتسعون في المائة خدما يعاملون بأقسى ما يعامل به العبيد. ولم يكن ولا واحد في المائة من الرجال ولا واحدة من الألف من النساء يقدر على القراءة. وكان الضعيف مضطهدا مقهورا

مسحوقا تحت الأقدام مغموسا في الطين والدم [1] بل حتى القوي كان مهددا بالأوبئة الوافدة والسيوف اللامعة على الدوام، والنجوم ذوات الأذناب في السماء، وجنود العفاريت الهائلة في الهواء.

تقول كتابة منقوشة في جدار بيعة عظيمة في لندن : — إن أردت أن تعرف أثره فانظر الى ما حولك. والمعنى بذلك بناء ماهر (يعني إن أردت أن تعرف كنه مهارة هذا البناء الذي بنى البيعة فانظر إلى ما حولك كما قال الشاعر العربي :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

كذلك إن أردت أن تعرف أفكار النصرانية الاجتماعية فادرس القرن العاشر فلا زخارف قول الواعظين ولا كذب المعتذرين ولا الأذعان السياسي من المؤرخين يقدر أن يخفي عن ذوي الألباب عظم تبعة الكنيسة ولاسيما البابوية في ذلك الزمان الذي بلغ فيه الانحطاط إلى دركة لا نظير لها. وإنه لفصل من أشد الفصول البشرية شقاء وحزنا من الفصول التي استشهدت فيها الانسانية وأنه لأفظع فصل من فصول غضب الله. حقا لقد حطم بولس من ناحية واوكستين من ناحية أخرى مدنية الانسان. فهل هذا هو الذي سماه — بعيدين عن اتباع الهوى مدنية الله... ؟

لقد فازا في جميع بلاد أوربة الا زاوية واحدة ألا وهي جزيرة (ايبريا) — الاسبانية — التي نسميها اليوم اسبانيا والبرتغال. لقد أزيل الصليب من تلك الأرض في ابتداء القرن الثامن وحكمها المحمديون. أجل قد لمعت رايات العرب المطرزة محمولة مع متن القرآن ظافرة تجتاز جبال (بيونيس) تتألق في شمس (بروفينس) [2] — فرنسة — ووصلت إلى (ليون) وقرى بركاندي [3] وصارت الممالك النصرانية مهددة. والمدرسون الأغمار في مدارسنا العالية لا يزالون يقولون للاطفال الاغرار — ناقلين — من مختصرات كتيبات التاريخ غير النزيهة

(1) كناية عن كثرة الظلم.

(2) كورة في الجنوب الشرقي من فرنسة.

(3) ليون مدينة شهيرة بفرنسة و « بركاندي » كورة من كور فرنسة ويسميها الفرنسيون « ك. ر »

ويضنبون في مدح (شارل مارتل) الظافر قدس سره العزيز حين لقي العرب في سهول فرنسة وصدهم عنها وحفظ العالم ـــ من المدنية.

إذ لا يوجد في الدنيا مدرس في جامعة أو مدرسة يتجرأ أن يقول لتلامذته ما يعرفه كل مؤرخ أن العرب أقاموا مدنية من أعظم مدنيات العالم وان شارل مارتل وجنده كانوا لصوصا خرابا متوحشين باربارين وأن عرب إسبانية لو تجمعوا في فتح أوربا وبقوا فيها قرنين وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا في اسبانيا لكنا الآن متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم ولا يستطيع عاد أن يعد مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان التي سببها ذلك الظفر المبين الذي ناله شارل مارتل في السهول التي بين تور [1] وبواتيي.

ربما تتعجب إذا قيل لك إنه يجب أن يضم درس مدنية العرب في إسبانية إلى دروس الدين ونشوء الانسان وارتقائه. وسينقضي سريعا جدا متى علمت أنه يثمر لنا درسين حيويين مهمين. الأول أنه من أبطل الباطل أن يقال في أي بقعة من بقاع أوربة أنها لم تقدر أن تعود إلى المدنية بسرعة لأن الدولة الرومية قد سحقها الغزاة البارباريون من أهل الشمال تحت أقدامهم. الثاني أن البعث الحقيقي للتمدن في أوربة لا علاقة له بدين النصرانية بل هو عدوها المبين، قبل سنين قليلة وقفت على جسر قرطبة وفكرت في ذلك المنظر المحزن وأكد لي كتاب دليل أن قرطبة قرية نشاط وتقدم لكنني ما قدرت أن أجد لذلك دليلا إلا أن يكون معزها وحميرها. وقف جوتيو [2] في موقفي هذا ذات يوم وفكر فيما فكرت فيه فتصور أن قرطبة « هيكل » عظمي لجارية بيضاء جميلة. لكني أنا ماقدرت أن أجد شيئا من البياض وكما قال أحد الكتاب الساخرين ثيران محملة من الأزبال ورجال اسبانيون بائسون يمشون ويجيئون في شوارع ضيقة قذرة بلطت في القرن التاسع ثم لم تمسها يد الاصلاح بعد ذلك. شاطيء نهرها مثلوم قذر وسكانها أقل من مائة ألف نفس

(1) مدينتان من مدن فرنسة.

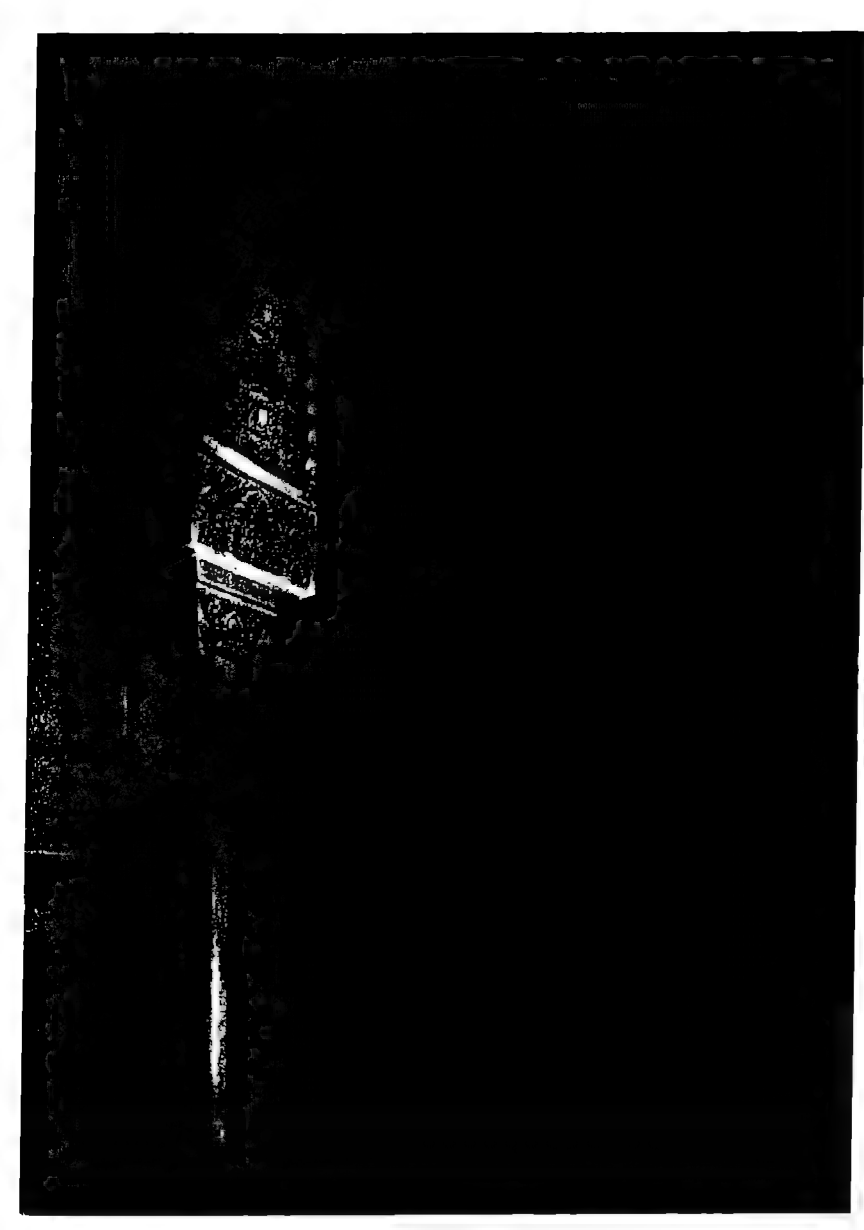
(2) جوتية 1832 ــ 1897 مؤرخ أديب من فرنسة ولد في مدينة هافر وتخرج في مدرسة « ايكول دي شارد » وصار قيما على السجلات الامبراطورية وله تآليف قيمة في التاريخ والأدب.

يعتركون مع المعيشة في بيوتها البالية وعلى ذلك فهذه القرية نفسها كانت قبل ألف سنة أعظم مدينة في الأرض يقارب سكانها مليونا من النفوس السعيدة المغتبطة. وكانت لهم ثروة يمكن أن تشتري بها الممالك الأوربية النصرانية مرارا مع أميال معمورة بقصور المرمر الفخيمة تلمع بين الحدائق البهيجة ممتدة أمام ذلك النهر. وكانت فيها العلوم والفنون التي جذبت الناس إليها من كل ناحية من نواحي الدنيا حيث كان الفن والعلم يقدران حق قدرهما.

كان الروم قد مدنوا اسبانيا وبريطانيا وغاليا وجنوب جرمانيا وإيطاليا. أولئك الذين كانوا محرومين من الوحي، شهوانيين ، فجارا، ماديين، جعلوا من أبنائها الأولين أمة مهذبة أرقى بلا حد من أي فرقة من أهل الممالك النصرانية بعد ألف سنة وأنت إلى الآن تمشي في طرقهم المعبدة وتعبر على قناطرهم في اسبانيا، وهذه المدنية الرومية الاسبانية قد سحقتها القبائل التيوتونية تحت أقدامها مثل ما سحقت كوليا وأشد مما صنعت بإيطاليا. لقد زلزلها الفنداليون ـــ المتوحشون وقد حكمها القوط الغربيون وسكنوها. والحقيقة أن اسبانيا تعلمنا عدم الثقة بالمعاهدات أو الامتيازات الدينية في التاريخ حتى في ذلك العصر الأول. فالمدنية القوطية التي أسست فيها كانت تبشر بمستقبل حسن. فقد كان الناس في خفض من العيش وفي دعة. وكان لحكامها ثروة ونعيم وترف فوق ما يتصور. وكانت دواوين العدالة فيها أفضل منها في أي بلد آخر على وجه الأرض. وكما يقول سكوت[1] ولا ينبئك مثل خبير « لم تترق أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية وإن تقوى القسيسين الروحية قد قضى عليها تعطشهم الشديد الى التسلط والاستبداد في الحكم على

---

(1) michael skot مكائيل سكوت (1170 ـــ 1232) كان ترجمانا ورياضيا ومنجما وتخرج في أكسفورد وباريس. وبعد ما نال رتبة القسيسية تعين في أماكن كثيرة في إيطاليا ولكنه رفض منصب رئاسة الاساقفة في كشل بأيرلاندة. واكتسب العلوم العربية في طليطلة. وصار من الادباء في قصر فريدريك الثاني وبأمر فردريك الثاني ترجم كتاب أرسطو مع شروحه العربية من اللغة العربية الى اللاتينية. وألف كتبا كثيرة. وقد طبع بعض مصنفاته ثماني عشرة مرة بين سنة (1477) و (1666) وفي قصة موته أساطير كثيرة. فزعموا أنه أخبر بأنه سيموت بوقع حجر عليه لا يزيد وزنه على أوقيتين (وأنسين) وكان يلبس من أجل ذلك خوذة من الحديد ليحفظ رأسه. وبينما هو يصلي في الكنيسة ولم تكن الخوذة على رأسه بسبب كونه في الصلاة اذ وقع الحجر المهلك على رأسه فقضى نحبه. ونسبوا إليه أشياء كثيرة عجيبة في استكوتلاندة وغيرها من الأقطار حتى أنهم لم يتركوا خبرا قديما من أخبار القدماء الخارقة للعادة إلا نسبوه إما إليه أو إلى سرويليام والبس أو إلى شيطان وقد ذكره دانتي في كتابه المشهور « جهنم »في عداد السحرة.



جانب من قاعة بني سراج في الحمراء



إحدى قاعدتي القوس الرئيسي لصالة السفراء في الحمراء

بلاد وأهلها. (الفصل الأول ص 263) واستانلي لين بول[1] لم يجد بدا أن يعترف بمثل ذلك في كتابه[2] « المغربيون في اسبانية » (ص 70) قال : —

« لاشك أن القوط كانوا متعبدين إلا أنهم كانوا يرون أن عبادتهم تكفر ذنوبهم وكانوا في الفسق والفساد مثل أشراف الروم الذين سبقوهم. وحتى القسيسون الذين كانوا يعظون ويحضون الناس على الأخوة المسيحية حين صاروا أغنياء وملكوا الضياع اتبعوا السياسة المأثورة في الجور فصاروا يعاملون عبيدهم وخدمهم أسوأ معاملة كما كان يعمل أشراف الروم قبلهم ».

وهذه صورة (إسبانيا) في القرنين السابع والثامن. فاعتبروا يا أولي الابصار. ولما استوطن القوط الغربيون اسبانيا في القرن الخامس أظهروا على الفور أن قوة التيوتونيين البربرية اذا تزوجت بثقافة الروم تتولد منها مدنية جديدة. وذلك يبطل (كما فعله تيودوريك في إيطاليا أيضا) الشطر الأول من الرواية المزعومة — أن النصرانية لأجل أن تمدن البربريين يلزمها زمان طويل. والذي يبطل الشطر الثاني من تلك الرواية وهو أن النصرانية كانت قوة ممدنة هو أن القوط الغربيين وكنيستهم جميعا سقطوا إلى حضيض الجهل والرذائل والجور كسائر بلاد أوربة في خلال قرنين.

---

(1) ستانلي لين بول (stanly lane - poole) (1854) ولا يزال في قيد الحياة. تخرج في اكسفورد وتعين أولا في شعبة المسكوكات في المتحف البريطاني وهناك وضع فهرستا للنقود الشرقية والغربية في أربعة عشر مجلدا. ثم سافر إلى مصر وإلى روسية في بعثة علمية وكان ينقب عن الآثار تحت أمر الحكومة المصرية. ثم تعين معلما للغة العربية في جامعة (دبلين) وقد ألف كتبا عديدة. منها « تواريخ[1] المور في اسبانية » نشر في سنة 1887 للمرة الأولى واعيد طبعه للمرة التاسعة سنة 1915.

(1) معناه بالعربية المغاربة.

(2) هذا خطأ من المصنف أوقعه فيه وفي أمثاله في مواضع من كتاب (1) جهله باللغة العربية واعتماده فيما ينقل عن غيره و (2) غلوه في التعصب للالحاد والجحود و (3) ظنه أن دين الاسلام دين زهد وتقشف كالنصارنية وان التمتع بزينة الحياة يضاده كما يضاد النصارانية ولذلك لم يتناقض في شيء ما تناقض في هذه القضية فتارة يروي أن أهل اسبانية كانوا متمسكين بالاسلام وشرائعه حتى منعهم التمسك بشريعة تحريم تشريح الانسان من بلوغ الدرجة العليا في علم التشريح وفي مواضع أخرى سنراها، وتارة يزعم انهم كانوا مدنيين خلصا لا يدينون بشيء، وأحيانا يدعي انهم كانوا متدينين تدينا سطحيا اسميا فقط الخ تناقضه.

والآن دعنا ننظر من أين جاءت القوات الممدنة حقيقة. كانت بلاد العرب بكرا لم تفتح ولم تمدن قط حتى أواخر القرن السابع فجاء محمد وأوقد نيران الحماسة الدينية في بلاد العرب بدينه الجديد. ولم يكن دينه قوة ممدنة [1] ولم يكن قط دين من الأديان عاملا من عوامل التمدن ــ لكنه بعث في العرب نشاطا عجيبا فانطلقوا يفتحون البلدان ويدخلون الناس في دينهم في أرجاء العالم. وفي وقت قصير جدا استولوا على المدنيتين القديمتين الفارسية والمصرية ولم يمض عليهم زمن طويل حتى أنشؤوا مدنية عربية فارسية. وكما قال سكوت « لم يكن بين الهمجية والجهالة الصحراوية وبين الاستقرار والثقافة العقلية في عواصم العباسيين والأمويين إلا أقل من مائة سنة » وهنا نرى الدرس الثاني أيضا أحلى وأوضح من الدرس الذي علمنا القوط الغربيون والقوط الشرقيون. وكان العرب في الخشونة وعدم التهذيب الثقافي مثل البتيونونيين ولكنهم لما استولوا على المدنية القديمة صاروا متمدنين تماما في خلال قرن واحد. وسكوت وان لم يشاهد الحال اتى ببينة تامة على سبب ذلك. (اضمحل الاعتقاد في صحة الاسلام بسرعة [1] ولم تلبث دمشق العاصمة الجديدة أن سيط الالحاد بلحمها ودمها وصار الفكر ينعكس منها إلى ما سواها من البلاد. ولم يكن الدين ليلهم المدنية ولكن اهمال أصوله سمح للطبيعة البشرية أن تمدن نفسها. وسننظر إلى أي حد ينطبق هذا على المور [2] ــ العرب الغربيين ومن انطبع بطابعهم ــ ولكن ينبغي لنا أن نعلم كيف صار هؤلاء العرب المحمديون أو (الشرقيون) ــ مغربيين ودخلوا أوربة بعد ما فتح العرب مصر كانوا لا يزالون متعطشين إلى الفتح وولوا وجوههم تارة أخرى شطر الغرب وواجه أبناء العرب الصحراء فلم ترعهم ولم يعبؤوا بها ولكن البحر أفزعهم وقد سمعوا بأن وراء الصحراء أرضا خصبة زكية للتربة (تونس والجزائر ومراكش) التي عمرها القرطاجيون والروم. جعلوها غنية. ولذلك توجه أحد القواد العظام (جنرال) في 20000 من الخيل والركاب سنة 646 وتوغلوا في مجاهل الصحاري فاجتازوا مسافة ألف ميل من الأرض على شاطيء افريقية الشمالي. وفي نحو نصف قرن حكم

---

(1) معناه : المغاربة في اسبانية.

(2) وهذه أيضا من زلاته وسنبينه في هذه الحاشية على ما جاء في كتاب مما يناقض هذا.

(3) المور معناه المغاربة.

العرب الشاطىء الجنوبي للبحر الأبيض كله وطمحوا بأبصارهم بنهمة وشره إلى أراضي الشاطيء الشمالي الغنية.

واستوطن بعضهم مع المغربيين [1] — البربر السود وكما يزعمون والحق أن البربر بيض بياضا قاتما وليسوا سودا — في الشاطيء المقابل لجبل طارق ولاشك انهم تزوجوا منهم فلذلك صاروا يعرفون عند الاوربيين بالمغربيين. والقلعة الحصينة التي كانت في الشاطيء الاوربي حركت رغبتهم. وكانت بيد قائد يوناني يدّعى « الكونت جوليان » تحت حكم امراطور اليونان اسميا. وفي سنة 1759 أو 710 صار الكونت جوليان حليفا للمور. ويحكى أنه أرسل ابنته إلى قصر ملك القوط الغربيين فاعتدى الملك على عفافها. فاستشاط لها جوليان وعزم على الانتقام فدعا أمير العرب إلى العبور إلى الشاطيء الاوربي وفتح اسبانيا، ووصف له الكنوز

---

(1) من الخرافات التي كانت شائعة في أروبة أن سكان المغرب الأصليين وهم البربر سود وبعضهم يقول بين البياض والسواد ولما كنت في مدينة «بن» محاضرا في جامعتها وطالبا ومترجما مع الأستاذ باول كالي في كتاب تخطيط البلاد الذي ألفه الأستاذ الفاضل ابن الفقيه البغدادي وذكر فيه بالتفصيل تخطيط البلاد وهو ما يسمى في هذا الزمان بالجغرافية العالمية ومن جملة ما ذكر شعوب أروبا وأوديتها الكبيرة مثل وادي «راين» الذي تسير فيه البواخر وجاء أستاذ في الجامعة يؤلف كتابا في آثار الأبنية القديمة فالتمس من الأستاذ باول كالي أن يلتمس مني أن أكتب له توصية لمن يساعده على زيارة الأبنية القديمة كالقرويين مثلا فكتبت له كتاب توصية إلى العالم الشهير الأديب الشاعر الأستاذ السيد أحمد سكيرج الذي كان قاضيا في مدينة وجدة ثم انتقل إلى سطات فأعانه على أحسن ما يرام فلما رجع جاء إلى القسم الشرقي من جامعة «بن» وشكرني على التوصية فقلت له أخبر الأستاذ باول كالي رئيس المكتب الشرقي من جامعة «بن» عن ألوان البربر سكان المغرب فإنه يظن أنهم سود وكان ذلك في سنة 1939 بتاريخ النصارى فضحك ضحكا عاليا فقال إن هذه خرافة فإني قد كنت ألفت كتابا في هيأة الجماجم أي الرؤوس البشرية في شمال أروبة فرأيت في المغرب من البربر جماجم تشبه تلك الجماجم أي في اللون والتفصيل ولولا أني سافرت لغرض آخر وهو الاطلاع على المباني القديمة لكتبت صفة تلك الجماجم وسأضيف ذكرها في المؤلف السابق وفي هذا الزمان لا يتوهم أحد أن سكان المغرب كلهم سود وأضيف إلى هذا الكلام أن البرابر مختلفون في الألوان كغيرهم فبرابر المغرب يغلب عليهم البياض الذي يصل أحيانا إلى حد الشقرة وصفرة الشعر وبرابر في الجنوب من المغرب والجزائر فيهم شيء خفيف من السمرة بسبب أرضهم يضاف إلى ذلك الخبر الذي شاع في هذه الأيام وأحزن أهل فلسطين وسائر العرب وهو أن الدولة الصهيونية في فلسطين نقلت سبعة آلاف من يهود الحبشة وهم سود الوجوه وبقي لها أربعة آلاف منهم تريد إلحاقهم وقد غضب بعض يهود فلسطين من هذا الخبر ولكن الدولة الصهيونية لم تبال بغضبهم وهذا الخبر أذاعته إذاعة لندن وغيرها فهذا يقيم البرهان القاطع على خطإ جوزف ماك كيب ومن روى عنه هذا الخبر الدكتور سكوت والكمال لله . أما الباربار فهم من شمال أروبة وكانوا ظالمين متوحشين ولا علاقة بينهم وبين البربر الذين كانوا يسكنون المغرب ولا يزالون كذلك إلى اليوم ومنهم دولة الملثمين ويسمون المرابطين ودولة الموحدين ودولة بني مرين .

والاموال المدهشة التي في قصر ملك القوط وكنيستهم وصفا شائقا. وأوضح له أن بلاد اسبانيا في انحطاط فلا يحتاج فتحها الا الى قليل من الجنود والعتاد.

وفي سنة 710 بعد بعثة استطلاعية جهز العرب قائدا بربريا ومعه 7000 جندي (ثم أمدوه بخمسة الآف فارس من البربر. وقبل انتهاء سنة 711 تم للعرب تقريبا فتح شبه جزيرة إسبانيا وبقية الجنود القوطيين والأشراف والقسيسين انحصروا في بقعة جبلية صغيرة على خليج (بيسكي). وصعد العرب جبال (بيرينة) وبنوا عليها سلسلة من القلاع ليحصنوا أنفسهم من سكان (غاليا) ــ الآن فرنسة ــ الذين كانوا في نظرهم غريبي الأطوار متوحشين وبمرور الزمن كما ذكرت سابقا فتحوا (غاليا) ــ فرنسة ــ ولما وصلت أخبار هذه الفتوح وما فيها من الغنائم والأراضي الخصيبة إلى الشرق جذبت خلقا كثيرا من العرب للالتحاق بإخوانهم في الغرب. وبعث الخليفة من دمشق واليا استعمله على بلاد إسبانية ومعه أربعمائة من أشراف العرب فتجدد في العرب التعطش إلى الازدياد من الفتح. وفي وقت من الأوقات كان في بلاد فرنسة مائة ألف جندي من[2] المور يجوسون خلال ديارها ويدوخون أهلها. وفي ذلك الوقت كانوا قد بلغوا درجة عالية في التمدن والرقي. وقد رحب أهل جنوب فرنسة بهؤلاء الفاتحين ورأوا فيهم روما جددا بالنسبة إلى الفرنج والجرمانيين الشماليين المتوحشين ولا حاجة إلى الاطناب في فشل المغربيين وعدم تقدمهم في أوربة (الذي يسمى في أكثر المدارس انتصارا للتمدن والنصرانية) وباي شيء عاد على أوربة. بل الأجدر بنا أن ننظر في الخطة التي ساروا عليها في اسبانيا نفسها حتى أوصلوها من الرقي إلى درجة جعلت بقية أوربة بالنسبة إليها همجية متوحشة لكن قبل أن نتجاوز هذا المقام ينبغي أن نعرفك أن حضارة المغربيين وتهذيبهم تركا أثرا خالدا في أهل جنوب فرنسة فبقوا قرونا طوالا متصلين بالمغربيين من الوجهة الثقافية. فثنايا جبال (بيرينة) كانت أول مصدر من مصادر الهدم لأوربة الباربارية. ولم يلبث أهل جنوب فرنسة أن صاروا في بلهنية العيش والرفاهية وفشا فيهم الالحاد والانحراف عن الدين. وليست حرارة الشمس فقط هي التي جعلت سكان أرض (بروفنس) المثل الاعلى في جودة الغناء والضرب. ثم نعود إلى اسبانيا فنقول كان

---

(2) المور : أي المغاربة.

الخليفة في دمشق هو الذي يولي الولاة والحكام في إسبانية وكان هؤلاء الولاة من شعب قد سار شوطا بعيدا في المدنية وكانوا يعملون دائما بالأوامر التي يتلقونها من الخليفة فشكلوا على الفور الدوائر المدنية والسياسية والنظام الزراعي. ولم يجد المغربيون مبالغة ولا إغراقا فيما سمعوه من عظمة الكنوز الملكية والكنسية. فوجدوا في (توليدو) ــ طليطلة ــ قاعدة ملك القوط الغربيين مقدارا هائلا من الذهب واللؤلؤ. على أنه من المحقق أنهم إلى ذلك الوقت لم يقعوا على الكنوز العظيمة التي كانت مخبأة تحت الأرض حيث دفنها القسيسون عند فرارهم. هذا وقد أخذ الفارون الأولون ومنهم الأسقف معهم كثيرا من الأموال المنقولة. ويُرْوَى أن جنود المور [1] وجدوا طائفة من رجال الكنيسة فارين ووجدوا عندهم كرسيا يوضع عليه الكتاب المقدس وكان ذلك الكرسي من الذهب الصلب الخالص مرصعا بالياقوت الزعفراني والياقوت الأحمر والزُّمُرُّد واللؤلؤ يساوي بسكتنا الحاضرة نصف مليون دولار مع أن النقود في ذلك الزمان كانت تساوي عشرة أضعاف ما تساويه اليوم.

لكن مدنية العرب في إسبانيا التي بلغت أوج الرقي إنما اسست على المعيشة الاقتصادية الصحيحة في تلك البلاد نفسها. ولا يتسع المقام هنا لذكر تاريخ المغربيين. فكتاب س. ب. سكوت الموسوم ب « تاريخ المملكة (الامبراطورية) العربية في أوربة 1904). يخبرنا بما شاء من ذلك في دقة وانسجام مع تقرير الأدلة. لكنه كبير في ثلاث مجلدات ضخام. فلم تزل الحاجة الماسة إلى تأليف كتاب مناسب في الحجم واف في بيان عظمة المغربيين التاريخية وكتاب (استانلي لين بول) المسمى[2] « المور في اسبانية » سنة (1895 في « سلسلة أخبار الأمم ») تأليف قوى الحجة جيد. ولكنه على طريق المؤرخين (في ذكر ملاحم الملوك ونوادرهم). وكتاب جارلوت يونج « أخبار النصارى والمغربيين في اسبانيا » سنة (1879) هو أيضا تأليف نفيس باسلوب عال يدلنا على ان المرأة النصرانية

---

(1) المور في اسبانيا : أي المغاربة في اسبانيا.

(2) المغاربة في اسبانيا.

حتى هي أيضا تأثرت بما كان للمغربيين من مدنية وحضارة. وكتاب وشنكتون أرفنك الذي أدى خدمة جليلة في استمالة الناس إلى هذا العنصر الحي في نشوء المدنية يقرأ الآن وهو معدود من أحسن المصادر الأدبية. وأما فنونهم وما بقي من مدنيتهم فكتب كالفرات الموسومة (آثار المور في اسبانيا) وكتاب الحمراء وكتاب قرطبة وكتاب طليطلة وكتاب إشبيلية وغيرها أفضل وأنفع ما كتب في ذلك. وكتاب دوزي « الاسلام الاسباني » نشر باللغة الانكليزية » سنة 1913 ومع أنه من أوائل ما نشر من الكتب الحديثة فلا تزال قيمته عند الناس عظيمة وهو على ذلك كتاب كبير ولعل تأليف (لين يول) [1] « المغربيين في اسبانيا » وتأليف الكفرت « اثار المور » أسهل تناولا وأكثر مناسبة ويمكنني أن أوصي بقراءتها من يريد أكثر مما تسع هذه النبذة الصغيرة.

لَسْتُ هنا بصدد ما يسمى « التاريخ ». وقعت فترة من الزمن اضطربت فيها الأمور وكثر عزل الولاة وتبديلهم بغيرهم اشتد فيها التحاسد والتنافس وفسدت سيرة دار الخلافة في دمشق فكثر تدخلها في أمر الولاة. ووقعت فتن عظيمة بين البربر (المغربيون الحقيقين) والعرب الذين/« جنوا ثمرات فتحهم » وكانت تقع غزوات بين قبائل العرب الذين جاؤوا من مختلف البلدان وآخر الأمر ظهر هناك شاب عربي من ذرية الخلفاء سنة 756 م فقبض على زمام الأمر واتخذ قرطبة قاعدة ملكه وجعل نفسه أميرا (وكان في الحقيقة ملكا) لمملكة [2] المور في اسبانيا. وهذا الأمير والأمراء الثلاثة الذين جاؤوا من بعده هم الذين أسسوا هذه المدنية التي نحن بصدد شرحها.

---

(1) المور في اسبانيا : أي المغاربة في اسـانيا.

(2) لمملكة المور في اسبانيا : أي مملكة مغربية في اسبانيا

الفصل الثاني

المور (1) في أوج مجدهم

عظمة غرناطة التي هي أشهر مدن المغربيين اليوم يرجع عهدها إلى زمان متأخر جدا وسنبحث الآن في مدنية المغربيين التي كانت في أواسط القرن العاشر وكانت أوربة في ذلك الزمان قد بلغت الدرك الاسفل في الانحطاط. وكانت رومية متلوثة برجس الفساد. وكانت الجهود العظيمة التي بذلها شارلمان لاصلاح قسم كبير من القارة المذكورة قد خابت وكانت فرنسة نهبا مقسما لغارات قبائل الشمال وانكلند كانت كذلك لغارات الدانماركيين عليها. وكان القسيسون في كل بلد يعيثون فسادا، ولا يبالون مثقال ذرة بما نسميه مدنية. أما إسبانيا فكانت بخلاف ذلك كانت مزدهرة بالعمران، وكانت حديقة تفوق الوصف في النتاج، وكان فيها تسع من أمهات المدن وثلاثة آلاف مدينة متوسطة وعشرات الألوف من القرى وكان على شواطى نهر الوادي الكبير — وحرفه الاسبانيون إلى كواد لكفير — فقط اثني عشر ألف قرية. ومع أن السير في ذلك الزمان لم يكن سريعا فقد قال المؤرخون كان السائر في بلاد إسبانية لا يسير مسافة يوم الا ويمر على ثلاث مدن، وأما القرى فكانت لاتنقطع تقريبا. وكانت على أحسن حال من العمران، ومدينة قرطبة قاعدة ملكهم كان عدد سكانها لا يقل عن مليون. واشبيلية كانت في وقت من الأوقات تحوي خمسمائة ألف نفس. ومدينة المرية خمسمائة ألف أيضا، وكان في غرناطة أربعمائة وخمسةً وعشرون ألفا، وفي مالقة ثلاثمائة ألف وفي بلنسية مائة وخمسةٌ وعشرون ألفا، وفي طليطلة مائتا ألف.

---

(1) المور : أي المغاربة.

ويقدر مجموع سكانها بثلاثين مليونا، وزيادة السكان بهذا القدر العجيب هي في حد ذاتها دليل على الدرجة العالية التي وصل القوم إليها من المدنية. وقد علم بالاستقراء أن السكان إذا كانت صحتهم جيدة، وتدبير الصحة سائرا على أحسن حال فإن عددهم يضاعف في ربع قرن. وهذا يدلك على ما عمل المور [1] من الأعمال الجليلة ، ويبين لك كيف أفسد الاسبانيون تلك الأعمال من بعد ونقضوها. واذا علمت أن سكان اسبانيا في القرن العاشر بلغوا ثلاثين مليونا، ويجب أن يبلغوا الآن مئات الملايين، فاعلم أنه الآن لا يزيد على اثنين وعشرين مليونا. فرقم ثلاثين مليونا في القرن العاشر برهان ساطع على ما كان للمغربيين من العلم والحكمة. وخذ مثلا انكلند، كانوا اذ ذاك مليونين أو ثلاثة وكانت العناية بترقية الزراعة أساسا لعمران تلك البلاد.

والناس الذين لم يروا قط إسبانيا يرون فيها رأيا مبهما (اغلبه مأخوذ من الروايات والافلام) انها أرض خصب، خضرة نضيرة، وإزهار دائم وغناء وعشق لا ينتهيان والاندلس وهي الناحية التي استوطنها المغربيون — ولم يهتموا كثيرا بالناحية الشمالية — لها صيت ذائع في ابتهاج القلوب وقرة العيون والهوى العذري والورد وآلات الطرب. وهذه شهرة تستحقها. وأنا أحب الاسبانيين فيمن أحبه من الاقوام الذين سحت في بلادهم ولكن الطرب ليس من شمائلهم. وليست الاندلس أرض عشق وأزهار وغناء. وإسبانيا اليوم في بؤس وشقاء. مصابة بداء القسيسين تحكم حكما مرذولا. ترى في أرباضها في أكثر السنة زربية محترقة رقيقة من النبات. والفلاحون المجهودون بكل مشقة يحصلون معيشة ضنكا من الأرض ومتى زالت منها الملكية والكنيسة واستبداد الجيش يجدد فيها نظام السقي وتصير فردوسا مرة أخرى أما الآن فهي محرومة من رأس المال والاعمال ولاريب أنها كانت نسبيا فردوسا في القرن العاشر حتى نتجت مثل ذلك النمو في السكان. وكان لاهلها ذكاء فساعدوا به الطبيعة. وكانت الانهار الصناعية والجداول توزع الماء وتروي الأرض حيث الفلاح الاسباني المسكين اليوم يرى المطر ينزل في رؤوس الجبال وتسيل به الأودية وتجرى رأسا إلى البحر. والقيعان الواسعة العقيمة اليوم كانت في زمن المغربيين

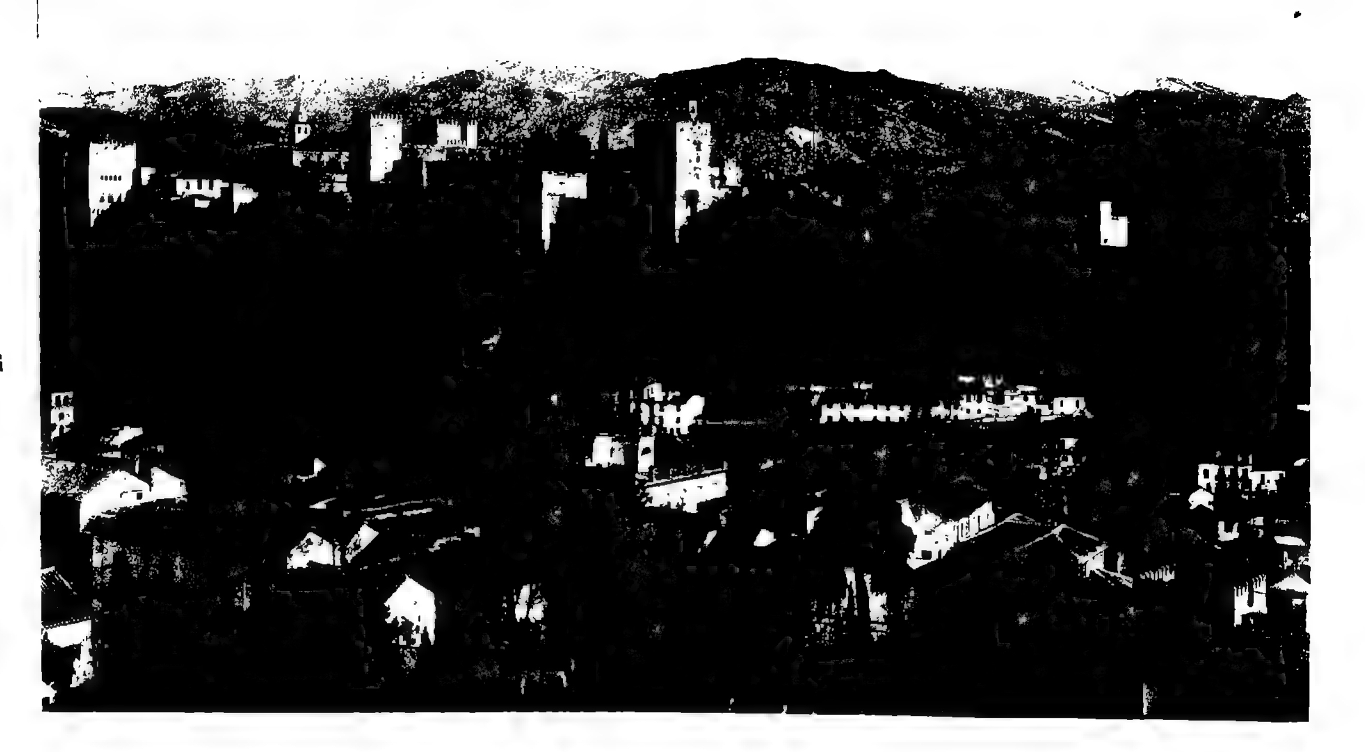
(1) المور : أي المغاربة.

حدائق غلبا وكانت تؤتي غلات ذهبية. وحتى سفوح الجبال كانت قد سطحت وخفقت بالأرض الزراعية. وفي كثير من البقاع كانت الأرض تعطي أربع غلات مختلفة في سنة واحدة. وكانت الاقوات كثيرة ورخيصة جدا. وأضاف المغربيون جميع الوسائل الشرقية إلى الوسائل الرومية في إسبانيا. فكان الآس يفوح بريحة العطرية مقرونة بريح الورد والاترج والنخل باسقات في سطورها الكريمة تواجه القبة الزرقاء. وكانت بلاد جنات. جنات لا يوجد منها اليوم الا في قليل من البلدان وعلى هذا الأساس قام هناك نظام صناعي تجاري في غاية الاتقان. ولا أريد أن أذكر تفاصيل هذا الأمر. وإنما أريد أن أذكر القارىء بالسيوف الفولاذية التي كانت تصنع في طليطلة والادوات الجلدية التي كانت تصنع في قرطبة التي كانت افضل الطرف في الدنيا. وكيف كان الاسطول التجاري المغربي يطوف البحار في طلب النوادر والتحف الرفاهية لمئات الألوف من الناس. وكان المغربيون روما جدداً. فانهم جلبوا العلماء والمهرة في الصناعة، والنحاسين وتجار الجواري الراقصات، وتجار الحرير وتجار الجواهر من جميع أرجاء الأرض. ولم يكن الخراج مجحفا وكان في الغالب يتألف من عشر الغلات وعشر ما يخرج من المعادن ومكاسب الصناع والتجار. ولكن كان الدخل مدهشا وكان دخل خليفة ذلك الوقت الذي أنا بصدد الكلام عليه وهو عبد الرحمن الثالث على ما قيل أكثر من 30,000,000 دولار سنويا. ولاتنس أن النقود كانت لها قيمة في ذلك الزمان بحيث يمكن أن يشترى بها اضعاف ما يشترى بها الآن. وسترى وصف هذه الثروة اوضح من هذا في الفصل الآتي. وكانت الثروة متساوية عند الاعيان والتجار وقد قرأنا أن وزير عبد الرحمن الثالث أهدى إلى ملكه هدية وهي ضيعة غاباتها تحتوي على عشرين ألف شجرة، وستين جارية حسناء، ومائة من الجياد الصافنات والبغال الفارهات وثمانمائة لأمة من أجود العتاد. وما يساوي مليون دولار من الذهب وغيره من النفائس.

أما المؤلفون من العرب، الذين يختلفون عن جهلة مؤرخي أوربا الرهبانيين جد الاختلاف فقد قدروا تلك الهدية ب 5,000,000 دولار.

وسترى كما قلت لك في الفصل الآتي من ذلك أكثر مما رأيت. وهناك ترى من الترف الذي أوجدته تلك المدنية شيئا يدهش العقول. وعلى ما كان عليه ملوك

المغربيين من البذخ والترف فانهم لم يهملوا المقاصد الخيرية والمصالح العامة، بل أنفقوا عليها من خزائنهم الواسعة إنفاقا لم يفعل مثله من ملوك النصارى الا قليل. وسأعقد فصلا من أواخر الكتاب أذكر فيه أعمالهم في العلم والأدب والفلسفة. وإنما أشير هنا إلى أن الملوك الذين أنشؤوا مدنية الأندلس (من سنة 756 إلى سنة 961) كانوا حماة كرماء ومحبين أوفياء، للعلم وأهله، وكانوا أكثر الناس سخاء وجودا في مناصرة الشريعة والتعليم وهم أنفسهم في كثير من الأحيان لم يكونوا قاصرين في الأدب. فالخليفة الحكم الثاني الذي كان في زمانه ملوك النصارى لا يقدر أن يكتب اسمه إلا قليل منهم كانت خزائن كتبه تحتوي على نصف مليون كتاب ويروى أنه كان ملما بجميع ما تضمنته. وكان الخلفاء ينفقون على كثير من المدارس من مالهم الخاص. وكان سخاؤهم بأموالهم الخاصة للمصالح العامة مثل سخائهم لها من بيت المال. وكانوا يراقبون الطرق المعبدة والجسور المتينة التي عملها الروم بعناية تامة فيصلحون ما فسد منها فكان للبلاد نظام في المواصلات يليق بصناعتها وتجارتها. وعجلات السيارات الثقيلة اليوم كانت تسير في طليطلة وقرطبة على الجسور العظيمة التي بناها الروم وجددها المغربيون. وجددوا القنوات وأنشؤوا قنوات جديدة لضمانة الماء الكافي لا للسقي فقط بل لتوزيعه في المدن على البيوت. وكان للبريد سرب من الخيل السريعة تبرده في جميع الطرق المهمة في المملكة. ولأجل أن تقدر هذه الأشياء حق قدرها ينبغي أن نتذكر دائما الاختلاف بين هذه البلاد وبقية أقطار أوربا. فاعلم أن أمهات المدن الأوربية لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة حتى بعد مضي ستمائة سنة من ذلك التاريخ فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة أو تجتمع فيتكون منها حياض حتى بعد ما عملت النهضة في أوربة عملها قرونا طوالا. أما في مدن المغربيين فكانت الشوارع مبلطة منورة قد سويت فيها مجاري المياه أحسن تسوية في أواسط القرن العاشر قال سكوت بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسيةُ تقدر ان تسع سيارة. وأصغر قناة منهن تقدر أن تسع حماراً. وكانت الشوارع مجهزة أحسن تجهيز بالشرطة. وهذا النظام الصحي السامي كانت تعضده النظافة العامة التي يراها الاميركيون في هذه العصور شيئا واجبا، ولكنها في



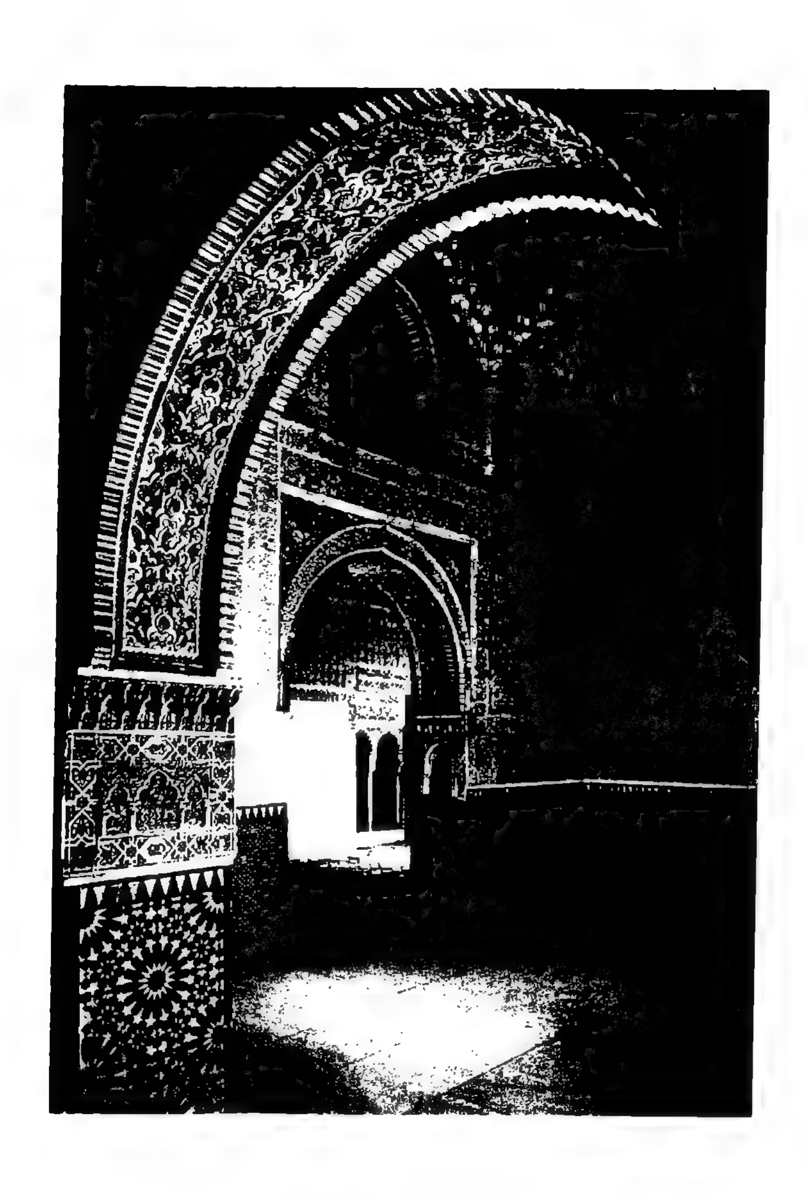
منظر عام لغابة الحمراء وقصرها مطلة على المدينة



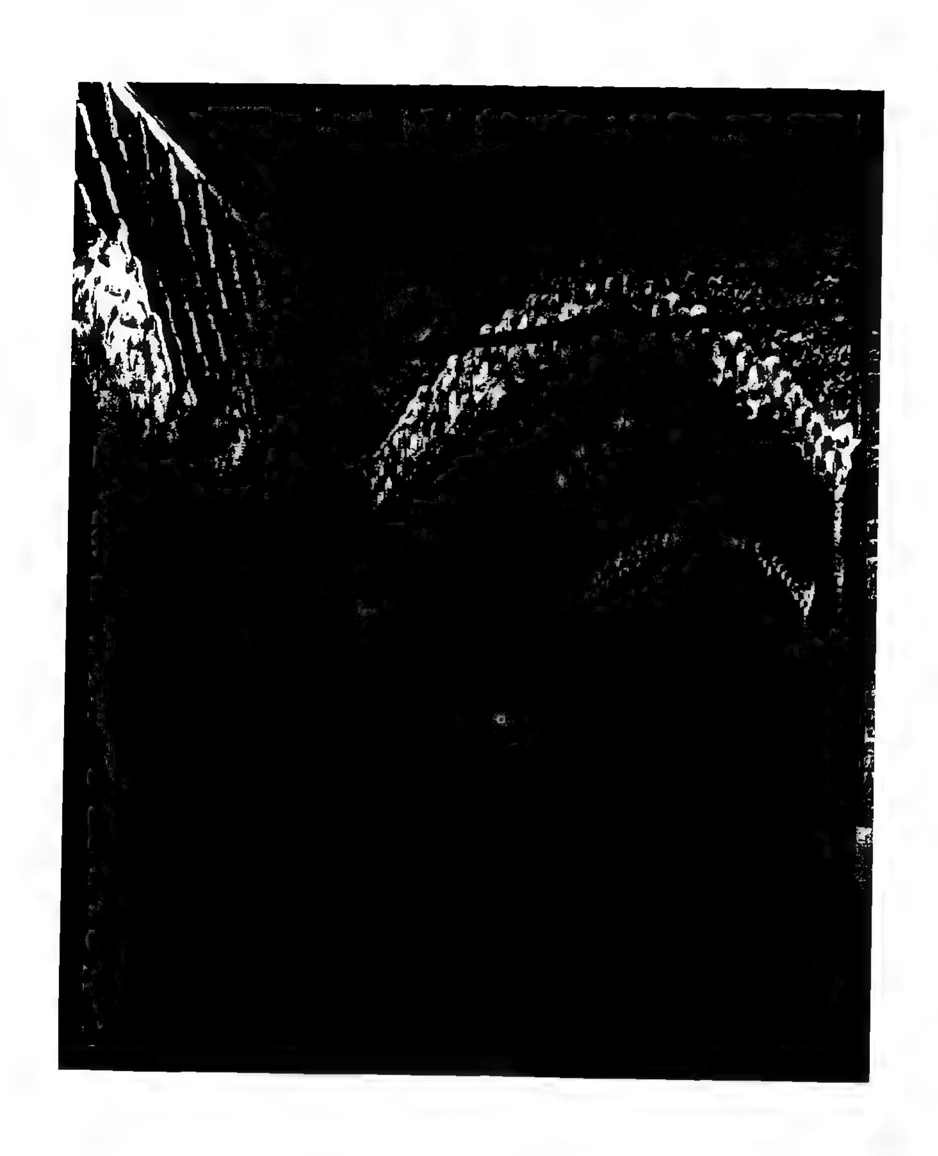
منظر عام لبهو الأسود في قصر الحمراء بغرناطة والشخص المشاهد في الصورة هو الأستاذ يوسف محمود غلام بثياب عربية مغربية وهو الذي أخذ هذه الصورة أثناء رحلته في الأندلس



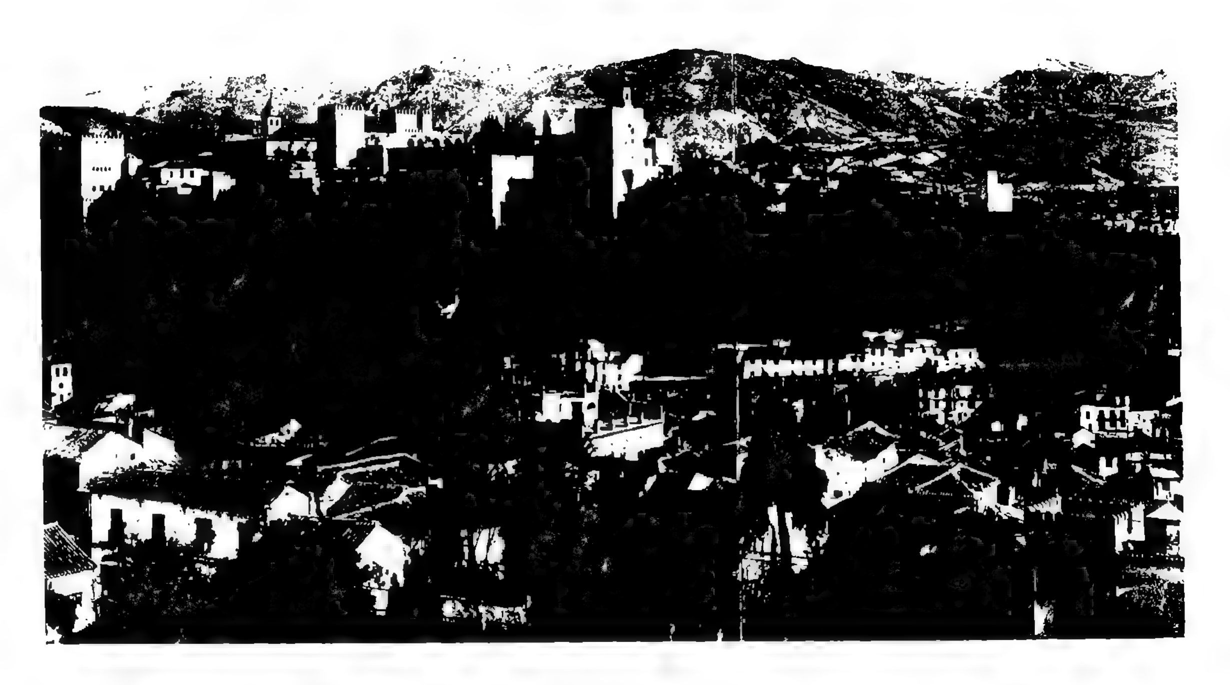
منظر يبدو فيه تناسق سواري بهو الأسود في الحمراء



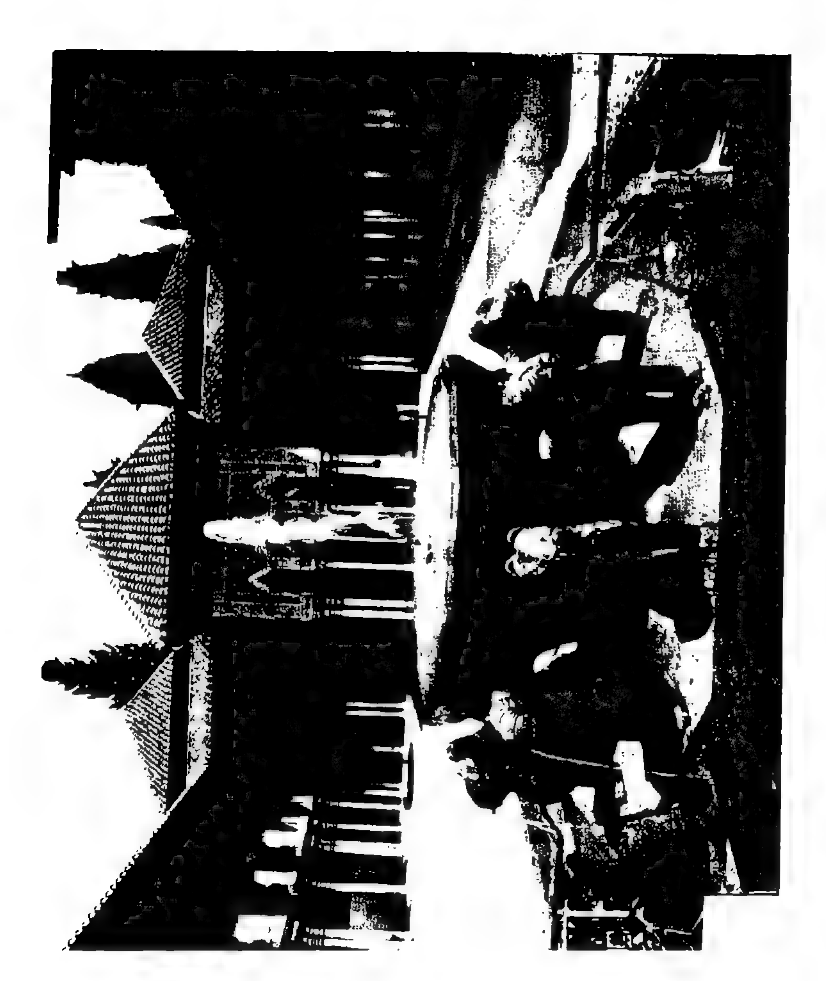
إحدى نوافذ شرفة قاعة الأختين في الحمراء



شرفة قاعة الأختين في الحمراء



منظر عام لغابة الحمراء وقصرها



منظر عام لبهو الأسود

ذلك الزمان كانت في نظر الاوربيين أعجوبة من أعاجيب الرقي التام. فكانت في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كل مكان، أما في بقية بلاد أوربة فلم يكن فيها ولا حمام واحد. وكان أشراف اوربة رؤساء الأقطاع منهمكين في الرذائل إلى حد يحجم الانسان عن وصفه. ولم يكن لبس الكتان النظيف معروفا في أوربا حتى اخذت (مودة) طراز لبس الكتان من المحمديين ولم تكن الزرابي أيضا تصنع هناك. وكان الحشيش[1] يغطي أرض قصور الأمراء ومصطبات الخطابة في المدارس وكان الناس والكلاب ينجسون المحلات إلى حد يَعجز عنه الوصف. ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه وفي ذلك الوقت لم تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية، ولكن في اسبانيا العربية كان الناس من جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهية. وكانت الفسقيات تترقرق مياهها صعدا في صحون الدور والقصور والأماكن العامة. ولا يزال في صحن الجامع الكبير في قرطبة حوضان كبيران جميلان من مرمر يزينان ذلك الصحن، حيث كان كل مصل يتوضا قبل أن يدخل المسجد ووصفهما سكوت في هذا الزمان (1، 679) فقال : —

« هذان الحوضان اللذان كانا من قبل متوضأ للمسلمين الغيورين من جميع الآفاق والآن يمدان بالماء سكان قرطبة النصارى ذوي المناظر القذرة المنفرة، والاخلاق السبعية والجهل العظيم بمزايا الشعب الطاهر العاقل المهذب الذي تنتمي إليه هذه الذكريات الفاخرة من الفن والصناعة. هذان الحوضان يشهدان شهادة مرضية بأن لا دوام للمدنية العليا، وأن الانسان دائما يميل بطبعه إلى التقهقر والرجوع إلى أحوال الهمجية. وتشهد بما لسلطة القسيسين من المقدرة على فعل الشر وإن سياستهم التي لم تجد لها تبديلا أسست على قاعدة احتقار مواهب عبيدهم العقلية. وهذه العدد التي أعدها الخلفاء بفرط ذكائهم ظهر أثرها في زيادة خارقة للعادة على حين كانت جميع بلاد أوربا لا يتضاعف سكانها إلا بعد مضي

---

(1) قال في القاموس الحشيش الكلأ اليابس قلت يريد ذمهم بكون أرض قصورهم غير مبلطة ولا مكنوسة بل متسخة بالنبات اليابس وغيره أهـ. المترجم

أربعة أو خمسة قرون. ولم تنحصر عنايتهم الأبوية في حفظ الصحة والحياة فقط فمع كثرة النفوس المفرطة كانوا لا يرون أحدا يصاب بمصيبة الا نفسوا عنه الكرب وواسوه وهذا فيما لم يمكن اتقاؤه منها. وكان يساعدهم على اتقاء النكبات واتخاذهم نظاما حسنا في استخدام البطالين في اصلاح الطرق والاشغال العامة. وكان عبد الرحمن الثاني قد أعلن أن كل من يريد العمل يمنحه. ودوائر العدل التي خلفتها محاكم التفتيش وغرف التعذيب ــ كما أثبته المحققون كانت منزهة عن كل ريب أو فساد وكانت المعارف والتعليم كما سترى، في فصل آخر، أحسن مما كانت في ممالك الروم، ولم يكن يضاهيها الا ما بلغه اليونان من المعارف العالية في أرقى أيامهم. والخلفاء أنفسهم شيدوا المارستانات ودور الأيتام كما كان يفعل ملوك اليونان (ومنذ زال ملكهم زالت هذه المؤسسات من أوربة) وكان الأعيان والتجار لا يألون جهدا ما اقتفوا آثار الخلفاء في العمل بهدي القرآن (في مثل هذه الخيرات)[1]. وكان الخلفاء أنفسهم يعودون المرضى ويبحثون عن المكروبين لينفسوا كربهم.

والنساء اللائي كن قد نزلن إلى دركة الخدم في بلاد أوربة عملا بما روته التوراة في قصة حواء من المحال ولكراهية القسيسين السابقين للزواج وإيثارهم العزوبة كن على خلاف ذلك عند المغربيين مكرمات مالكات حريتهن. والكرم ان لم نقل البذخ والسرف اللذان حلا محل التقشف والتعصب في دمشق انتقلا إلى الأندلس فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة. والعشرة الخشنة التي يعاشر بها المسلمون المرأة كما هو مشهور عندنا لم توجد في الاندلس إلا في أواخر أيامهم. والنساء في القصر الملكي بقرطبة كن يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور وإن مالت طباعهم إلى غير ذلك لم يكن من الصعب عليهن ان يتخادن[2] مع الأدباء والشعراء وأصحاب الفنون الصناعية، وكان طلب العلم مباحا لهن بكل حرية وكثير منهن كان لهن ولع

---

(1) قابل هذا مع ما تقدم ويأتي من زعمه أن الالحاد كان فاشيا في الأندلس بل في دار الخلافة دمشق نفسها وفي سائر المدن الاسلامية في زمان رقيها تر أنه نقض قوله بنفسه وكفانا مؤنة الرد عليه.

(2) في هذا نظر ظاهر والذي تثبته الروايات الصحيحة أنه لم يكن هناك تخادن علني لا في قصور الأمراء ولا في قصور العامة وإنما كانت تحصل مساجلات ومشاعرات بين الرجال وبعض الأديبات من النساء.

شديد بالعلوم الرائجة في ذلك الزمان من فلك وفلسفة وطب وغيرها. وكانت النساء يتبرقعن في خارج بيوتهن ولكنهن كن مكرمات وفي منازلهن كن مشرفات ومحترمات.

ولا حاجة إلى آن اتكلم في ظرف المغربيين ولطفهم وشهامتهم، لأنهم هم الذين طبعوا الشعب الاسباني طبعا لا يمحى أبدا على الاحترام الشخصي واللطف الذي لا يزال من خواصه المستميلة حتى في الصناع والفلاحين. وهناك مزية أخرى يمتاز بها المغربيون وهي التسامح الديني، في أول الأمر كان هناك بلا شك شهداء ــ يعني مقتولين لمخالفتهم في الدين ــ ولكن لا مناسبة بين ذلك وبين المذبحة التي عملها الاسبانيون أخيرا في ذرية المغربيين. وأما بعد استقرار المملكة العربية في الاندلس فإذا استثنينا معاملتهم لطوائف الثوار من النصارى كأهل طليطلة الدين كانوا على الدوام ينتظرون الخلاص من ناحية الشمال، فقد كان أهل الأديان جميعا يعاملون بالحسنى وكانت على اليهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم وكانوا يتمتعون بحماية حقوقهم. فكثر عددهم وعظم بذلك الخراج الذي يؤخذ منهم، فكان الخلفاء لا يشجعون على دعوتهم إلى الدين مخافة نقصان الجزية ورخصوا لنصارى طليطلة في المحافظة على كنيستهم الكبرى. وأخيرا اشتريت منهم بثمن غال جداً، ورخص لهم أن يبنوا عددا كثيرا من الكنائس وكانت لهم في طليطلة ست كنائس وكانوا مستمسكين بالعلاقات الودية مع جيرانهم حتى أثار فيهم القسيسون الضغينة الدينية. وأما ما يخص اليهود الذين كانوا يتمتعون بعصرهم الذهبي حينئذ وارتقوا إلى أعلى درجة في العلوم ونالوا أعلى المناصب في دولة المغربيين فسأتكلم عليه في فصل آخر. وهذه النبذة العامة في ذكر مدنية المغربيين ستزداد وضوحا وتفصيلا عند الكلام على وصف حياة قرطبة وغرناطة. ولابد أن القاريء علم مما ذكرناه آنفا تفوق المدنية التي يزعمون أنها وثنية تفوقا خارقا للعادة ولابد أنه رأى أثرها في اوربة المتوحشة وهذا صحيح لا يمترى فيه أحد من المؤرخين والمؤرخون لا يقابلون بين المغربيين والنصارى لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذي يقيس أهل « بوستون » ــ مدينة في أميركا ــ بقبائل اسكيمو. وذلك عجب عجيب. قال استانلي لين پول في شأن النصارى الذين كانوا فتحوا شمال إسبانيا :

« كانت غزوات النصارى لعنة عظيمة على من يكون لهم فريسة. وكانوا خُشُناً جاهلين أميين لا يقدر على القراءة منهم الا قليل جدا. ولم يكن لهم من الاخلاق الا مثل ما لهم من المعارف — يعني لم يكن لهم منها شيء — وأما تعصبهم وقسوتهم فهو ما يمكن أن تتوقعه من الهمج المتوحشين ».

ثم قابل بعد بين الممثلين لنظام الفروسية في القرون الوسطى — يعني أشراف اسبانيا — وبين المغربيين (ص 189).

« اتصف نصارى الشمال باقصى ما يمكن من مضادة أقرانهم المغربيين. جاء العرب تلك البلاد وهم عشائر بدو جفاة ثم رقت طباعهم إلى أن صاروا شعبا عالي الكعب في التمدن يستلذون الشعر واللطائف الأدبية. وقد وقفوا جهودهم لخدمة العلم واستقراء مسائله وفوق ذلك كله قد عزموا على التمتع بلذات الحياة إلى أقصى حد ممكن. وأذواقهم العقلية كانت لطيفة فوق العادة وظريفة. فالموسيقى والخطابة ودرس المسائل العلمية بتعطش لا مزيد عليه. يظهر أنها كانت طبيعة غريزية لهذا الشعب الزاهر. وكانت لهم سَجية معرفة النقد والولع بالمجاز والاستعارات الجميلة وتقديرها على النحو الذي ننسبه اليوم إلى الأمة الفرنسية. أما نصارى الشمال فإنهم كانوا بضد ذلك على أقصى ما يتصور. فكانوا جفاة غير مهذبين. ولم تكن آداب نظام الفروسية، التي أدخلها المصنفون في تاريخهم، لتخطر لهم ببال. وفقرهم الشديد جعلهم خدما لكل من يريد استخدامهم وكانوا يبيعون شجاعتهم لكل من يدفع لهم أغلى ثمن لها. فكانوا يحاربون لتحصيل القوت ».

---

(1) cid يقال انه ولد في سنة 1040 طار صيته في الحرب التي وقعت بين أمير قشتالة واسمه شانسوو رئيس نقار وكان داهية في الحرب وخدعها ودسائسها وبعث لجباية الخراج من المعتمد ملك اشبيلية وكانت الحرب قائمة بينه وبين ابي عبد الله ملك غرناطة وكانت الدبرة والهزيمة على أبي عبد الله وجنوده في تلك الحرب وعاد إلى برغش Burgos بغنائم وأسارى كثير واتهمه كراس أور دونيس لدى الفونسو انه غل شيئا من الغنائم وانتهز الملك فرصة غيبة سيد فهجم على المور ليبعد سيد عن قشتالة وكان ذلك سنة 1081 وكان اسمه الحقيقي (رودريكودياز Rodrigo Diaz) وعاش جنديا طريدا مذبذبا تارة مع النصارى وتارة مع المسلمين ومن أشهر اعماله ما عمله في بلنسية وكان معه سبعة آلاف مقاتل أكثرهم مسلمون فافتتحها بعد حصار دام تسعة أشهر ونقض كل العهود التي أعطاها أهل المدينة وأحرق القاضي ابن جحاف وذبح كثيرا من الاعيان وقسم أموالهم غنيمة بين جنوده وحكم بلنسية ومرسية اربع سنين إلى أن هزمه المرابطون ومات في تموز سنة 1099 وهناك أساطير كثيرة اخترعها القُصّاص ونسبوها إليه.

ثم أرانا ـــ يعني سكوت ـــ أن (سيد) الذي لا يزال حتى الآن زينة لكتب الأدب وزهرة من أزهار الفروسية النصرانية ، كان خائنا قاسيا غدارا ناقضا للعهود لا إيمان له ولا ذمة يبيع سيفه وعواطفه من كلا الفريقين المسلمين والنصارى .

و(ميس) جارلوت ينج التي كانت لها الشجاعة الكافية أن تقول الحق في شان المغربيين والنصارى منذ خمسين سنة لم تجد ما تسلي به دينها الا شيئا واحدا وهو قولها قد بلغ الاسلام أعلى درجات الالهام في زمان مدنية المغربيين في اسبانية ولكنه انقرض بعد ذلك. وأما النصرانية فإن لها آمالا في المستقبل غير محدودة ».

وفي هذا خطأ مضاعف. فإن مدنية المغربيين لم يلهمهم إياها الاسلام. وهي لم تمت. والمدنية المستمرة التي جاءت في العصور الأخيرة ليست من النصرانية في شيء [1].

وأحيل القارىء على كتاب سكوت القيم فقد أطال النفس في بيان الأدلة على أن المغربيين أنشؤوا ثقافتهم العالية على خلاف القرآن [2]. وأما السجايا الحميدة التي كانت فيهم فلا شك ان القرآن جاء بها وحث عليها وإن كان مصدرها الرئيسي هو ماجبلوا عليه من الكرم والشهامة. وكذلك تسامحهم مع اليهود والنصارى لعل بعض الناس يتعجب إذا علم أن أصله من القرآن (كما نقلت ميس ينج عن أحد كبرائهم) لكنهم كانوا أمة حرة الأفكار وغالبهم كانوا متمردين على الدّين [3] . وكان في الاندلس أميال من جنات الكرم وان كان القرآن قد حرم الخمر، ووجدت التماثيل المنحوتة والصور المدهونة في قصورهم. ودمشق التي أخذوا

---

(1) الحق ان الاسلام الهمهم تلك المدنية نصا على بعضها وإباحة لسائرها. والدليل على أن الاسلام دين ممدن استيلاء العرب على الفرس والروم استيلاء ثابتا وإدارتهم لممالكهم على أحسن حال وهم في ذلك الوقت لم يعرفوا شيئا إلا الاسلام والقول بأن ذلك يقع من غير المتمدن قول يستلزم أن الجهل خير من المدنية في بعض الأحيان وهو معلوم الفساد. بل الصواب أنه لا يمكن شعبا أن يتغلب على شعب تغلبا ثابتا الا وحظ الغالب من المدنية أوفر من حظ المغلوب.

(2) وهذا تناقض من المصنف لا يخفى.

(3) وهذا أيضا من تناقضه.

منها حضارتهم أصالة لم تمض عليها إلا مائة وخمسون سنة بعد وفاة محمد حتى امتلأت بالكفر والالحاد ولم يكن الاستخفاف بالدين غير رائق في نظر الطبقة المهذبة من المغربيين كما قال سكوت، ولكن التربية والعلوم غير الدينية كانا منتشرين في أنحاء شبه الجزيرة ولم يكن المغربيون على يقين في أن القرآن من الله[2]. والآن قد أخذنا في أنه لا فضل للنصرانية في إنشاء المدنية في أوربا إلا بقدر ما للاسلام على مدنية المغربيين. الممالك النصرانية لم تدخلها المدنية إلا في القرن الحادي عشر. وحتى في ذلك الوقت كانت فنونها الصناعية مصحوبة بخلال بربارية في الاجتماع والسياسة وأدب النفس. وكان الجهل مستوليا على تسع وتسعين في المائة من أهلها. وبقي قسم كبير من تلك الباربارية (كما سنراه فيما بعد) إلى القرن التاسع عشر. والحقيقة ان مدنيتنا الحاضرة لا علاقة لها بالنصرانية. ولكن المدنية التي دخلت أوربة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانت لها صلة كبيرة بالمغربيين — أي كان مصدرها منهم — فالنور الذي اشرق في اسبانيا لم يكن بد من أن ينبثق إلى أوربا. فالاسبانيون الذين استولوا بالتدريج على النصف الشمالي من إسبانيا عندما أخلد المغربيين إلى أرض الترف والبذخ، وانحصروا في القسم الجنوبي — الاندلس — لم يبقوا جامدين لا شعور لهم بثقافة جيرانهم يعني أنهم أخذوا يقتبسونها وكان السياح والمسافرون من النصارى الذين يزورون مدن المور يؤوبون إلى أوطانهم فيقصون من أخبار المغربيين وعلومهم وحضارتهم الجميلة ما يهز النفوس ويشوقها. واليهود خاصة مثلوا دورا مهما في نشر الثقافة الجديدة ولكننا سنتم الكلام على مدنية المغاربة قبل أن نتصدى لهذا.

(1) من هنا أتي المصنف وشيخه سكوت ومن على شاكلتهما لاعتقادهم انه متى وجدت جنات الكرم والتماثيل في بلد فلا إسلام فيه وهذا جهل بالاسلام اذ لم تعدم الخمر من بلدان المسلمين حتى في زمان الرسول والخلفاء وفي بلدانهم ولم يأمر الاسلام بإعدام الخمر لانه رخص لغير المسلمين في تناولها فكانوا يشربونها في كل زمان ومكان وأحيانا كان يشربها بعض ضعفاء العزائم من المسلمين حتى في زمان النبي ﷺ. فمن ضبط منهم أقيم عليه الحد وهو أربعون جلدة في زمان النبي ﷺ. ثم جعلت ثمانين وفي الحديث ان النبي ﷺ. أتي برجل قد شرب الخمر فامر بإقامة الحد عليه وكانت تلك المرة هي الثالثة فقال له رجل لعنك الله ما أكثر ما يؤتى بك إلى رسول الله في الشرب فقال النبي ﷺ لا تلعنه فلعله يحب الله ورسوله. وأما التماثيل فاتخاذها ليس كفرا وانما هو معصية فلا ينافي الاسلام.

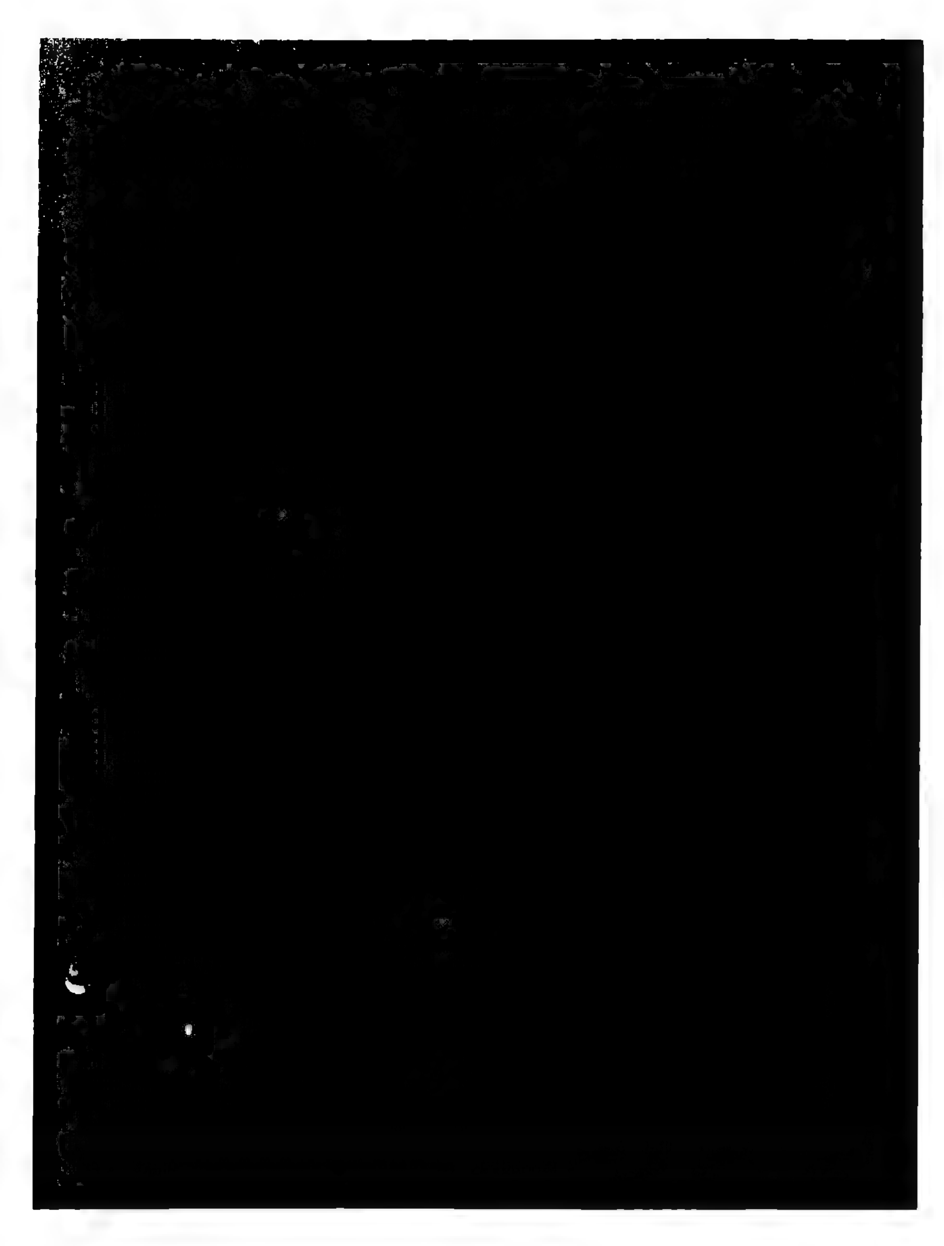
الفصل الثالث
مدينة النور والحب

مجريط (مدريد) التي كانت في القرون الوسطى قرية مظلمة، مثل قرية وأيومنك (وأيومنك Wyoming قرية في أمريكا) اليوم هي واقعة تقريبا في وسط إسبانيا وفي شمالها بالضبط سلسلة جبال وادي الرملة المتدثرة بالثلوج حتى حين مررت بها في شهر يونيو وكان الجو حارا. ولما انطفأت نار الغيرة وحب الفتح من قلوب المغربيين تركوا هذه الناحية الشمالية ذات البرد القارس لبقايا المملكة النصرانية، فانضم إليهم الغوغاء المجازفون من فرنسة، وبمرور الزمن تألفت منهم أمة صغيرة ذات بأس وضراوة على القتال، أما كيف جاهدت هذه الأمة الصغيرة إلى أن فتحت اسبانيا كلها واستردتها تارة أخرى فهو حقيقة صفحة عظيمة في تاريخ الحركات العسكرية ويحق للاسبانيين أن يفتخروا به من حيث هو فتح ومن سوء الحظ قد قضى هذا الفتح على المدنية.

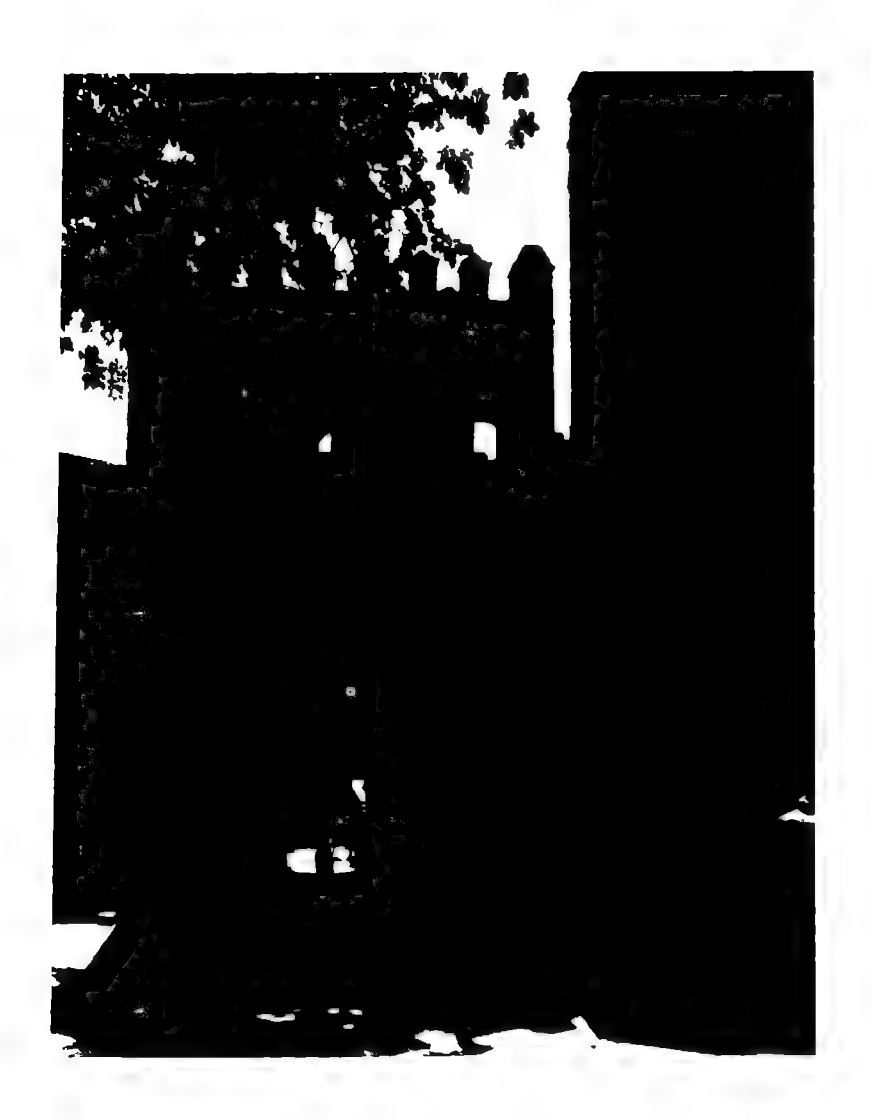
ولست بصدد ذكر الحركات العسكرية هنا. والذي أريد بيانه أنه في سنة 1085 استرد الاسبانيون أقصى مدينة في الشمال من أيدي المغربيين وهي طليطلة قاعدة ملك الاسبانيين القديمة. وهذه المدينة اليوم في حالة تدل على ما جناه الاسبانيون على المدنية في قضائهم على المغربيين. ولهذه المدينة موقع فريد لاتشاركها فيه مدينة أخرى. فهي مبنية على كوم من الصخور مرتفع عن الأرض والنهر محيط بها من ثلاث جهات. وفي القرن العاشر كان يعيش في تلك المدينة 200,000 نسمة في غبطة وسعادة. وسيوف طليطلة مشهورة عند كل مؤرخ وخبري لان قيونها كانوا أمهر القيون في العالم وعند الكلام على قرطبة يمكن أن تجمع شيئا من أخبار طليطلة المدينة المغربية العظيمة. واليوم، بعد مرور ثمانية قرون من استرجاع



داخل مسجد طليطلة ويرجع إلى القرن العاشر الميلادي



القنطرة العربية في طليطلة



الباب القديم لمدخل مدينة طليطلة. بني في القرن التاسع الميلادي وهو من الفن العربي

طليطلة، ترى سكانها نحو 30,000 ألفا من الكسالى يدبون دبيبا في شوارعها المهجورة الهامدة ويعيشون على كرم الزائرين. ومنظرهم يذكر الانسان بآلاف الضباب التي تسكن خرائب يومبي (إيطاليا). لما ركب الاسبانيون ودخلوها. يتقدمهم رئيس أساقفتهم... حين رفست المدنية تحت الأقدام وتلاشت. شيدوا فيها كنيسة فخمة فيما بعد. ولكن من جهة أخرى انحطت المدنية إلى حال أنها صارت قرية كبيرة فكأنما بنيت الكنيسة لخراب المدينة. والجسر العظيم الذي على النهر متين جدا ومفيد كثيرا فلذلك لم يقدروا على تدميره. وباب المدينة العجيب، باب الشمس قد أبقوا عليه، فهو يظهر اليوم تذكارا محزنا لماض مجيد ينظر إلى الخراب ويندب مجده البائد وأما سائر المدينة العجيبة فكأنها لم تغن بالأمس. ولو بحثت بجد واجتهاد عن بقايا تلك العظمة الغابرة لوجدتها تلاشت وصارت كأمس الدابر. وتطوف مبهوتا في شارعها الرئيسي وهو زقاق ضيق حيث كان ربع مليون من النفوس يعيشون في نعيم تطلب مكانا طيبا تستريح فيه فتكون خاتمة تطوافك أنك تجد نفسك في حجرة قذرة تتغذى بين سائقي البغال والفلاحين. وانتحى مجد المغربي نحو الجنوب، إلى اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية. وكانت طليطلة لذلك المجد كالطليعة. وكان الجنوب الشامس وطنا طبيعيا للمغربيين . ومن العجيب أن لانجد إلا قليلا ممن يعرفون أن قرطبة كانت تضاهي في عظمة مجدها بابل ورومية وبغداد هذا مع أن عهدها ليس ببعيد. وقد بينت أن منظر قرطبة اليوم منظر محزن. ولا أريد اليوم بهذا النوح والعويل الدائم أن أهيج أو أحاول أن أهيج سخط الناس على الدين الذي ألهم الاسبانيين أن يبيدوا هذه المدينة العظيمة. وأنا أشد تأسفا وتحسرا على خسارة النوع البشري مني على جناية أولئك الجناة. لو أن الممالك النصرانية عمرت وترقت بالعمل الصالح الذي عمله اليونان في الشرق والروم في ايطاليا. وفرنسة و(انكلند) وشمال افريقية وبعمل هؤلاء المغربيين في طليطلة واشبيلية وغرناطة. كيف كنا نكون اليوم ؟ لو عمت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع أوربا لبلغت أوج المدنية وتقدم العلم فيها تقدما عظيما في القرن الثالث عشر ولكانت أميركا وسائر بقاع الأرض قد اكتشفت قبل تاريخ اكتشافها واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر وأسبق مما وقع لها. ولكان النوع البشري بأسره اليوم متمتعا بثروة ورفاهية ورقي وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالي سنة 2500 م.



باب الشمس في طليطلة، ويلقبه الأثريون ذرة الفن العربي

البشري بأسره اليوم متمتعا بثروة ورفاهية ورقي وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالي سنة 2500 م.

فهل كانت قرطبة إلى هذا الحد عجيبة ؟ نعم، كانت كذلك بالنسبة إلى القرن العاشر وبالنسبة إلى أي عصر آخر ماعدا زماننا هذا وكان في إمكانها أن تعلمنا دروسا كثيرة من فنون المعيشة.

لم يبق من آثار قرطبة في القرون الوسطى إلا أثر واحد وهو جامعها الذي لا يزال إلى اليوم جميع أطفال قرطبة يسمونه مسجدا ولولاه ما تجشم أحد عناء السفر لمشاهدة قرطبة — ولو كانت على خمسة أميال منه — ولكن الناس من جميع أنحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه. وهو أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة (سنت بيترس) وهو آية لا نظير لها من الهندسة والبناء وظاهر هذا المسجد لا يستولي على اللب. ولم يكن المغربيون الذين كانوا يفضلون الاقامة داخل البيوت أكثر من خارجها يهتمون نسبيا كثيرا بالظاهر. وأما في الداخل فهناك العجائب إذا دخلت الجامع من أي باب من أبوابه التسعة عشر يخيل إليك أنك تائه في غابة من أشجار المرمر. ففيه ثمانمائة وستون سارية رقيقة من المرمر والرخام واليشب وفيه غير ذلك ألف واثنتا عشرة سارية. وفيه تسعة عشر رواقا ينتهي كل منها بباب من الأبواب التسعة عشر. وله سقف خشبي منخفض نسبيا قد زخرف أحسن زخرف بالأرجوان والذهب. وفي الأعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس يحترق فيها الزيت العطر وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح فتلقي أنوارها على ذلك المشهد : وأكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثون قدما (فوت) يحمل ألفا وأربعمائة وأربعا وخمسين مصباحا. ولها مرآة تعكس النور فيزيد شعاعه تسعة اضعاف. وفيها 6000 آلاف طبق من الفضة مسمرة بالذهب ومرصعة باللؤلؤ وكان الجامع قد شيد مع مضافاته في القرن الثامن والتاسع والعاشر. المحراب الذي هو اقدس محل في مسجد المغربيين كان فيه حنيتان وكان أعظم زخرفا من سائر المسجد. وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص أو الديباج بِفُسَيفسائه الجميلة. وأحيل القارىء على كتب زخرفة البناء أو كتب الاستدلال ليرى عجائب هذا الجامع العظيم. وكان بناؤوه من النصارى



منظر تبدو فيه حديقة النارنج وخلفها منارة جامع قرطبة



الباب الرئيسي لجامع قرطبة



منظر صفين من سوارى جامع قرطبة

المنتمين إلى الكنيسة اليونانية وكانت بينهم وبين المغربيين مودة فجلبوهم لبنائه. وهو أثر لمدنية زاهية لايضاهيها اليوم شيء في الدنيا كلها. وكان عبد الرحمن الأول مؤسس هذه الدولة جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق التي قضى فيها أوائل عمره. وهو الذي ابتدأ بناء الجامع وأتمه الخلفاء الذين جاؤوا بعده، وبلغت نفقاته على ما حدثنا به مؤرخو العرب 300,000,000 دولار. وإنما كان هذا آخر عمل عمله في حياته. وقد شيد غير ذلك هو وخلفاؤه ورجال دولتهم قصورا فخمة ومساجد كثيرة كانت تزيد المدنية في كل سنة جلالة وبهاء قدر سكوت سكان قرطبة في أزهى أيامها بمليون. وآخرون قدروهم بنصف مليون، ولكن مؤرخي العرب حدثونا بأنه كان فيها عشرة آلاف قصر عشرة منها للملك. و113000 دار و700 مسجد و90 حماما عموميا و4300 سوق و 5000 طاحونة على شاطيء النهر والآن بعد « تقدمنا » كله فقرطبة بلدة منحطة حقيرة سكانها نحو مائة ألف من ذوي المناظر الكريهة الأموات وإن كانوا يعدون في الأحياء.

وكان للمدينة القديمة شوارع مساحتها عشرة أميال كلها مضاءة ومبلطة تبليطا حسنا « وإلى الآن لا تزال تطأ تبليط المور في كثير منها) ومجاري مياهها كانت منظمة جيدا ولا تزال مئات من الدور باقية، فيمكنك أن تتصور معيشة أهل البيت العربي تدخل من باب حديدي ضخم جميل ثم تمر في دهليز قصير مظلم فتصل إلى صحن الدار (كما في جنوب أميركا) وهذا الصحن هو وسط البيت ترى هناك أزهارا ورياحين وبُسُطاً من الحرير والفِسَيْفساء المتلألئة والنقوش العربية الجميلة وتجد في وسط كل صحن تقريبا فسقية من المرمر، كل ذلك يجعل المنزل مقاما بهيجا تحلو فيه السكنى ويطيب في العيش. وقد جلبوا الماء من أميال من نهر (سيرا) ثم وزعوه على المنازل في أنابيب من (1) الآنُكِ. وكانت النظافة عند المحمديين فرضا مقدسا حتى أن النصارى حين استولوا عليهم (2) دمروا الحمامات.

وعندنا وصف دقيق لقصر بناه عبد الرحمن على ثلاثة أميال من قرطبة. وإذا ذكرنا أن القياس ملكي فسنعرف شيئا من أحوال معيشة أهل قرطبة في القرن

---

(1) الآنك : هو الرصاص.

(2) دمروها : يريد المصنف ـــ لاعتقادهم أنها من فتوحات دين الاسلام.

العاشر. بنى هذا القصر لتكريم امرأة وهي محظيته الزهراء [1] وخلافا للقرآن [2] جعل لها تمثالا جميلا من المرمر نصبه على باب القصر وكان يشتغل في بناء هذا القصر عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة وبقوا يعملون فيه سنين وينبغي لنا أن نفرض أن هذا القصر قد بهر مؤرخي العرب في ذلك الزمان فلم يقدروا أن يرووا تفاصيله على الحقيقة لأن وصفهم له لا يعتمد عليه تقريبا. فقد زعموا أن له خمسة عشر ألف وأربعة آلاف سارية (جلبت من اليونان وايطاليا وافريقيا وغيرها) والايوان الأوسط كانت سواريه من المرمر والحجر الشفاف وكانت رؤوسها مرصعة باللؤلؤ والياقوت، وكان جريد سقفه من الذهب والفضة وكانت جدرانه وقبته من العقيق اليماني، وكان له ثمانية أبواب من الآبنوس والعاج مرصعة بالجواهر، وكان في القصر ثلاثمائة حمام فاخر مستجمع لشروط النعمة. وكانت الحدائق واسعة جدا حتى أن الحيتان التي كانت في حياضها وكانت كلها من نوع « السمك الذهبي » كان قوتها اليومي اثني عشر ألف رغيف من الخبز. وكان عدد الخدام الذكور 13,750 وعدد الاناث 6314 وعدد الخصيان والوصفان 3350. وقد أخبرنا بما كان يستهلك ثَمَّ من الطعام يوميا بحيث لا تخفى علينا منه أوقية واحدة. وكان طعاما فاخرا هنيئا مريئا. وكان هناك غير من ذكرنا العساكر والموسيقيون والشعراء والراقصون ورجال الدولة والأدباء لقرض الشعر والاشتغال بالموسيقى، بل حتى المباحثات العلمية والفلسفية كان لهما الاعتبار التام هنالك، وكان الاعجاب بهما لا يقصر عن الاعجاب بقد جارية حسناء راقصة أو عينين كحلاوين لخريدة محظية بيضاء في غلالة حريرية سوداء من غواني الحريم. وكان عدد حرس الخليفة الخاص اثني عشر ألفا من خيرة الجنود يلبسون أفخر الحرير، ولهم مناطق مذهبة وأجفان سيوفهم كذلك كانت مذهبة ومقابضها مرصعة بالجوهر والأحجار الكريمة وكان هذا القصر عاشر عشرة من القصور الملكية، أو « فيلات » قصور الاصطياف. وحوله كانت مساكن جميلة لخاصة الخليفة ورجال دولته المقربين وأرباب المناصب العالية. وكذلك كانت مدينة الزهراء مدينة تسبي الألباب وتسحر

---

(1) هنا ترجم « الزهراء » بـ flower وهو غلط لأنها مؤنث الأزهر وهو المتلألىء اللون فلعل الصواب ان يترجم Brilliant.

(2) الصواب أن يقال وخلافا لحكم الاسلام جعل لها تمثالا.



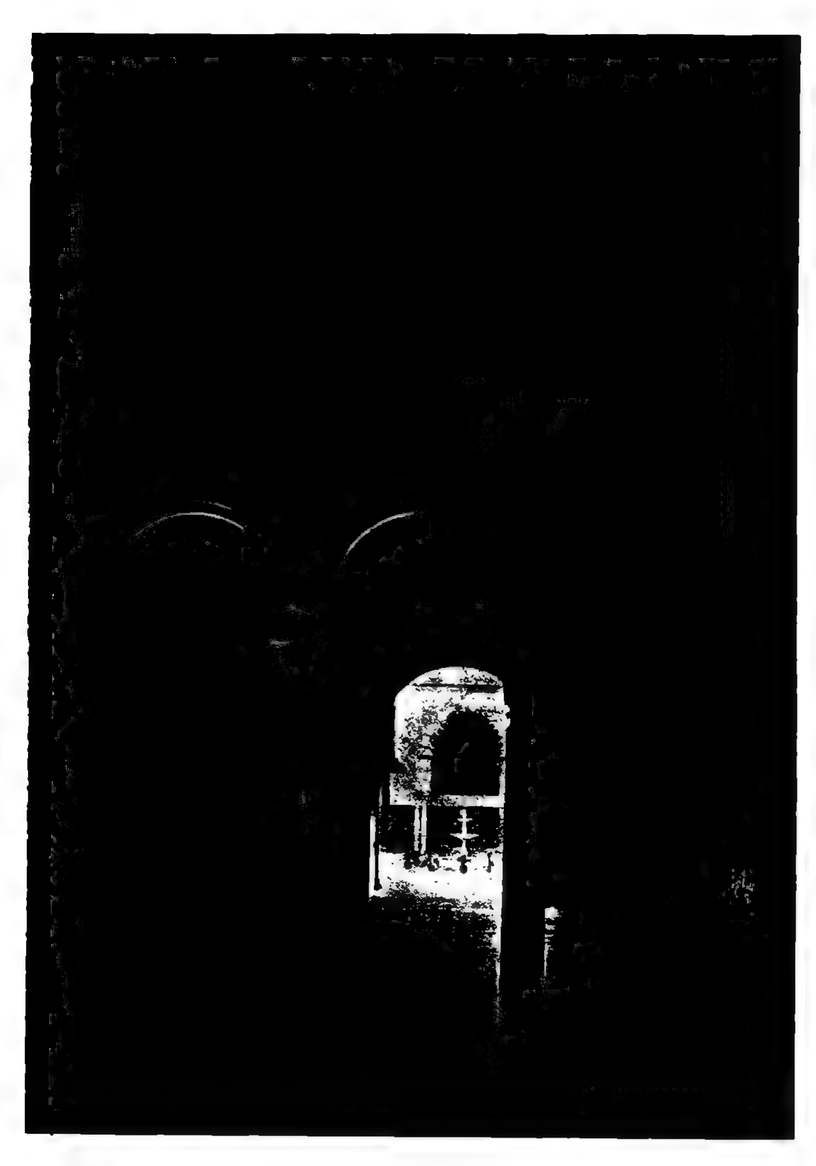
منظر بعض الأقواس المتداخلة من جامع قرطبة

العقول بجمالها وإن سألت عن حالها اليوم فهي في حال لا تقدر أن تشبع قليلا من المعز. وكل شيء هناك كان ملكيا والموسيقي المغني الخاص لعبد الرحمن الثاني كان أديبا من أعاجيب الزمان وسنذكره فيما بعد، معاشه 40,000 دينار من الذهب في كل سنة أكبر بكثير من راتب رئيس الولايات المتحدة وهذا النعيم الذي لم يمض عليه إلا أقل من خمسمائة سنة لم يحفظ منه الاسبانيون مثقال ذرة. وكان يصب في خزائن الملك في كل سنة نهر مفعم من الذهب، فيفيض منها على الأشراف والأمراء والعلماء وكبار التجار وغيرهم. وكانت القصور الفخمة ممتدة على شاطيء الوادي الكبير مسافة عشرة أميال وكان أسواقها أغنى أسواق الدنيا. فلم يسمع سامع بشيء من التوابل أو العطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطية النادرة أو البسط والزرابي البديعة أو آلات اللهو في أي رجا من أرجاء الدنيا إلا وقد جلبت إلى تلك الأسواق وحال أميركا اليوم بالنسبة إلى الدنيا القديمة هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنسبة إلى غيرها من البلاد ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدنية. وكانت الحدائق العامة المعدة للتنزه نزهة للأبصار. وستعلم شيئا من ولوع المغربيين بالحدائق والجنات إذا رأيت الحديقة المعروفة في غرناطة بجينراليف والحديقة المسماة القصر في إشبيلية. وكان المور يتوخون الجمال في كل شعبة من شعب المعيشة. حرم القرآن الموسيقى والأشعار المجونية ومع ذلك لم يكن في الدنيا مكان أولع أهله وشغف سكانه بالأغاني والأشعار مثل الأندلس [1]. وأما الخمر فحتى الفقراء كانوا يشربونها. وقد عزم أحد الخلفاء على أن يمنع الناس من شرب الخمر وان يتلف دوالي الكروم كلها، فمنعه وزيره وقصارى أمره أن منع شرب الخمر جهارا. فكانت تشرب خفية إلى أن توفي.

والمغربيون أنفسهم كانوا صنّاعاً ماهرين في الأدوات المعدنية والجلدية، وأحسن المنسوجات الحريرية والكتانية. وكانوا يصنعون الفسيفساء العجيبة. وينقشون النقوش الجميلة على الأواني والأدوات المنزلية. وكانت لهم مهارة عظيمة في دهن الأواني الخزفية، وكانوا حاملي لواء زخرفة داخل البيوت والقصور وزينتها وبلغوا في ذلك درجة عالية لم يكن يعرفها أحد في الدنيا غيرهم، وكانت لهم معادن كافية

---

(1) هذا سبب غلطه في نسبة الالحاد لهم.



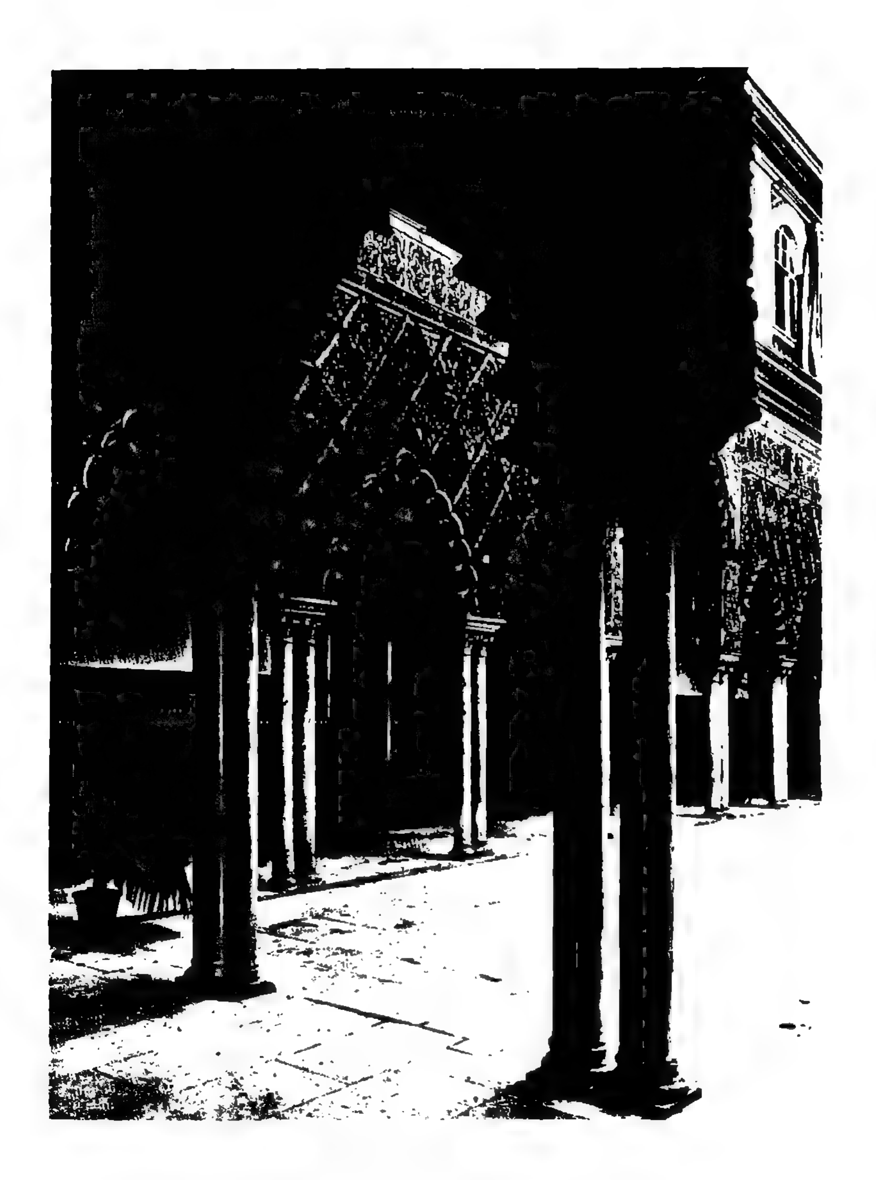
منظر جزء من قاعة السفراء في القصر الاشبيلي



منارة جامع اشبيلية البالغ ارتفاعها 95 متراً وطول ضلعها 13,5 مترا



منارة جامع اشبيلية البالغ ارتفاعها 95 متراً وطول ضلعها 13,5 مترا



أحد جوانب ساحة الجواري في القصر الاشبيلي

من الرخام والمرمر، ومع ذلك كانوا يجلبون المرمر من يونان وايطالية وافريقية. وكانت سفنهم تجلب المقادير العظيمة من خشب السدر والعاج والآبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق وكانوا يجلبون من هناك الذهب والفضة والجواهر والمحار والحجر الشفاف وحجر اللازورد وجلود السلاحف وكل مادة معروفة من مواد الزينة. وكانت خزائنهم المالية عظيمة كما قلت من قبل بالنسبة إلى عصرهم، إلى حد أنهم كانوا يسيطرون على الدنيا كلها من الوجهة المالية وقد عرفوا كيف يقفون أموالهم على فنون المعيشة إلى حد لم يصل إليه إلا قليل من الأمم. وقصور الأشراف وأرباب المناصب والأدباء كانت تقارب في الفخامة والسعة قصور الخليفة. وحتى منازل أرباب الحوانيت كان لها جمال ورفاهية محتهما أعاصير النكبة التي أنزلها الاسبانيون بالأندلس. وعلاوة على ذلك فمئات الحمامات المحشاة أطرافها بالمرمر والفسيفساء والحدائق العامة البديعة التي كانت ممتدة على شاطىء الوادي الكبير كانت نعمة ورفاهية للناس جميعا من الخليفة إلى أدنى الطبقات. وفي كل أمر من تفاصيل معيشتهم أبدوا سلامة ذوق لا يمكننا نحن أن نأتي بها. والعشرون ضاحية التي كانت حول المدينة لم تكن أسماؤها « بوتس فيل »[1] و « نيوتن »[2] وما اشبهها من الأسماء الخشنة بل كانت أسماؤها هكذا « وادي الفردوس » « الوادي الجميل » « حديقة العجائب » وهكذا. ولقد صدقوا فانها كانت كذلك وكانت مبثوثة بينها المنازل البيض المشرفات وحولها غابات الاترج والنخيل والسرو الواسعة وروضات الأزهار الغضة الباقية طول السنة تجري من تحتها الأنهار والجداول فالبحيرات والعيون، والمخابىء، والمغارات وصفوف الأشجار وكل فكرة عند الفلاحين والمتفننين في الغرس والزراعة قد استعملت هناك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. واذا عبرت النهر على الجسر العجيب (الذي يبلغ طوله 1200 قدم وارتفاعه فوق الماء 90 قدما) تجد ضاحية حفت بالحدائق البهيجة والروضات الجميلة تسحر الألباب ببهائها. ولو لم يكن هناك سواها لكانت المثل الأعلى في المدن.

---

(1) « بوتس فيل pottsville » من أسماء الضواحي في أميركا.

(2) « نيوتن Newton ».



جسر الوادي الكبير في قرطبة



جسر الوادي الكبير في قرطبة

واذا انقضى العمل في كل يوم، كانت قرطبة ترى معترك ضحك وغناء وذنوب يفوح عطرها ومباحثات عقلية دقيقة وموسيقى شجية بجميع الآلات التي كانت معروفة لذلك العهد وكان العباد والزهاد في قرطبة كثيراً، لأنها كانت تحتوي أعظم المعابد العلمية والدينية وفطاحل العلماء في الدنيا. وقد سن أحد الخلفاء وكان دينا قانونا يقضي ببناء مسجد[1] في كل اثنى عشر بيتا[2] ونفذ قانونه، إلا أن الظرف واللطف البعيد من الدين كان هو الغالب. وأكثر الناس كانوا يمتثلون الرسوم التي يأمر بها دين الدولة، ولكن لم يكونوا متعمقين في أصولها النسكية التقشفية. فلا دمشق ولا بغداد وحتى انطاكية في أوج مجدها ولم تكن مركزا للسرور مثل ما كانت قرطبة في حين كانت بقية أوربة متدثرة بالخرافات الموحشة ولم تكن في الدنيا قط بلاد أسعد ولا أجمل ولا أنعم عيشة من الأندلس في القرون الثلاثة العاشر والحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

وأعظم مزية يمكننا ان نمدح بها المغربيين هو أن نذكر ان شغفهم بالشهوات واستهتارهم باللذات كان متحدا على نسبة سواء مع ولوعهم بالتمتع بالعلوم العقلية والمعارف الدقيقة المحققة التي كانت منتشرة بصورة أوسع مما كانت في رومية أو أثينة. ولم يكن في الدنيا كلها ولا هو كائن اليوم بلد يكرم فيه العلماء والأدباء ويكافؤون بالجوائز العظمى مثل ما كان في الاندلس ولم يكن في الدنيا بلد غير الاندلس يحوي خزائن الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة وجمعا عظيما من خيرة الكتاب البلغاء وذوقا عاما في المباحث العقلية مثل ما كان في الاندلس والحلقات أو الدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين الذين كانوا في ايطالية يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة انما كانت تقليدا ضئيلا للمغربيين. وهنا وصلنا إلى ناحية من معيشتهم لنا بها علاقة خاصة اذ كانت هي أمتن ركن لتجديد المدنية في أوربة فلذلك يجب أن نخصها بفصل مستقل.

---

(1) قابل هذا ما زعمه من قبل ان المغربيين ومن قبلهم العرب والدمشقيون كانوا غير متدينين ولا متبعين للاسلام تجده متناقضا.

(2) وهذا أيضا شاهد على تدين أهل الاندلس خلافا لما يدعيه المؤلف. وتأمل قوله « وأكثر الناس كانوا يمتثلون الرسوم الخ » تر انه نقض ما أدعاه أولا من فشو الالحاد في الاندلس.

الفصل الرابع
علوم المغربيين وآدابهم

هناك حقيقة محزنة ودليل يملأ النفس غما وأسى يدل على ان الفكر البشري لا يزال ناقصا وبعيدا عن الرقي الحقيقي، وذلك أن الذين يعرفون كيف يعيشون في كل عصر قليل وبعد مضي ملايين من السنين على وجود الانسان وستة آلاف سنة على حدوث المدنية والشعور بالوجود نحن إلى الآن نختصم في ما هو المثل الأعلى للمعيشة، وأكثر الناس لا يعرفون كيف يستعملون نعمها استعمالا موزونا. وتَبِعَةُ ذلك معظمها يعود إلى النصرانية. لكن الطبقة العليا من اليونان والمثقفين المفكرين وصلوا إلى قريب من المثل الأعلى. وعندهم أن الحكمة كل الحكمة أن نعرف كيف نعيش — وذلك انما يكون بترقية الجسم والعقل والأخلاق بعناية سواء وحماسة سواء. لا يفضل واحد من هذه الثلاثة على قسيميه بشيء. وحتى أثينة كانت فيها معركة مستمرة لا نهاية لها بين الفلاسفة الاشراقيين أتباع زينو أعداء الاستهتار اللُّد وخصومهم السايبراتيين أنصار الاستهتار بالشهوات وزعمائه. حتى أبقراط نفسه لم يكن يعطي للجسم حقه خلافا لما يعتقده فيه عامة الناس. ولا نقول أن المغربيين وصلوا إلى درجة الكمال ولكن مثلهم الأعلى كان معقولا وممتازا والنصارى الذين يطعنون فيهم ينقبون في تواريخهم الواسعة — وفي الاكثر من التواريخ الخسيسة التي ألفها أعداؤهم الاسبانيون غير الموثوق بهم — حتى إذا ظفروا على سبيل الندور بشيء من القسوة أو الخيانة أو الفجور أخذوه فرحين وأطالوا في شرحه بقصد التشفي والتشنيع. وكل مدنية تشع على عشرين مليونا من النفوس السعيدة لابد أن يوجد فيها أمثال تلك الهفوات النادرة، ولكن انما يستغلها

ويتجاهل الاخلاق الحسنة التي كانت غالبة عليهم المؤلفون المخادعون الذين يضلون من يقرأ كتبهم بذكر أعمال استثنائية وقعت على سبيل الشذوذ والندور. لقد قرأت جميع التآليف التي ألفت في سيرة المغربيين مستندة على ما كتبه المعاصرون لهم فرأيت يقينا لا ريب فيه أن أخلاقهم كانت سامية. ومن فضائلهم أنهم تجاهلوا واجبات الزهد والتقشف التي يأمرهم بها دينهم [1] الذي لم يروا فيه أمرا إلهيا وجعلوا حياتهم بالتمتع لجميع اللذات التي يقضي بها الاستعمال الحكيم للخمر والنساء والشعر والموسيقى. وأما غيرتهم على شرفهم وشهامتهم فهناك ألف قول والف عمل يجليها لك في أكبر التآليف التي ألفت في تأريخهم وقد ظهرت آثارها في شهامتهم المعروفة في الحروب.

وليس ظهورها بأقل من ذلك في تسامحهم مع السكان والزوار من النصارى مادامو مستقيمين في سلوكهم وفي معاملتهم لليهود بمقتضى الاخوة التامة وكرمهم الذي هو كنار على عَلَمٍ على المرضى واليتامى والأرامل والفقراء. ومع أنهم كانوا لا يحفلون بتحريم القرآن للخمر والغناء. فانهم كانوا يرعون أوامر الانسانية حق رعاية في الاحسان إلى المرضى والمحتاجين [2]. وقد حافظوا على تلك الأوامر تدينا وكرما أكثر من محافظة النصارى على مواعظ عيسى في مجلس وعظه بالجبل. واذا درست التواريخ حق دراستها ترى أنما يتبجح به النصارى من كونهم متمسكين باعمال الخير والاخوة التي جاء بها الوحي تراه يتضاءل ويتلاشى أمام ما عمله المغربيون من ذلك [3]. كان عصر ملوك الرواقيين أتباع زينو في رومية عصرا عظيما في الخيرات والمبرات وكان عصرالمسلمين في الاندلس عصرا عظيما في الاحسان والبر وأعظم منهما عصرنا هذا الخالي من الأديان. وأما نصيب النصارى من عمل الخير والاحسان الى المحتاجين من النوع البشرى في سجلات التاريخ في القرون التسعة عشر فضئيل ناقص الى حد يجعله مسخرة للساخرين والحاصل أن الطاعنين في المغربيين لا يستطيعون أن يغمزوهم إلا بالانهماك في الشهوات ولكن ذلك العيب

---

(1) وهذا أيضا من تناقضه وغفلته.

(2) بل فعلوا ذلك تمسكا بكتاب الله وسنة نبيه الكريم.

(3) لا تنسى ان المور عبارة عن الدول المغربية التي حكمت اسبانياوجنوب فرنسة.

المزعوم يكون مزية وفخرا اذا علمنا أن المغربيين كانوا يزنون مطالب النفس والعقل كليهما بقسطاس مستقيم، وجيلنا الحاضر على ما ورثه من تجارب ستة آلاف سنة من سير حكمائها وروايات أديانها حتى اجتمع له من ذلك مالم يجتمع لجيل قبله منقسم إلى فريقين ــ ما عدا البؤساء كالكومستوكيين [1]، فريق يجدون في تهذيب النفس والترقية في العلوم العقلية والفنون العالية ويحتقرون الشهوات ويواجهونها بوجه عبوس. والفريق الثاني قوم ذوو دماء حارة انهمكوا في الخمر والفسق واطلقوا لأنفسهم العنان وأعطوها أقصى ما تريد من شهواتها حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلا. وكلا الفريقين معجب بنفسه وكل حزب بما لديهم فرحون. وكل منهما يعيب الآخر ويرميه بالمثالب وكلاهما في ضلال مبين.

من المزايا التي اختص بها المغربيون أنهم يرون أن السعادة وكمال النعمة إنما هو في المعيشة التي كانت تكفل حظ النفس والعقل في التهذيب على السواء، وكانت الدرجة العليا التي أدركوها في الشعر ناشئة عن ذلك الرقي الموزون. وكل الطبقات من اصحاب الحوانيت إلى الخلفاء ينشؤون وينشدون الشعر. وكثيرا ما ترى جماعة من الرجال والنساء في ليالي الصيف في حديقة غناء تعبق روائح رياحينها في ساحات البيوت الجميلة جالسين يتباحثون في الأشعار ويتنازعون بلطف في المساجلة في منتوجات أفكارهم. وكان ولعهم بالموسيقى ودرسهم لها يساوي شغفهم بالعلوم والآداب. وكانت الاندلس حقيقة في تلك الأيام أرض غناء وغرام وأزهار ونوافح طيب.

ولكن هذا الشغف بالموسيقى كان مزدوجا مع شوق أعظم منه إلى استقراء العلوم العقلية إلى حد كدنا نعجز عن فهمه. فأين يوجد في عالمنا شخص يداني زرياب القرطبي [2] الموسيقي الشهير. وقد ذكرت في فصل سابق أن عبد الرحمن

(1) طائفة في اميركا اسمها (انتوني كومستوك Anthony Comstock (1844 ــ 1915)، وكان متقشفا وكان جنديا في الحرب الداخلية الاميركية. وكان يريد أن يصلح اخلاق الجيش. ثم دخل في سلك الانشاء وصار زعيما للثورة على فساد الاخلاق ؛ ولكنه كان جاهلا لأنه كان يعظم أمر الجزئيات ويهمل الكليات. ومن المعلوم أنه لم ينجح فيما حاوله.

(2) أصله من بلاد فارس سافر إلى العراق وتتلمذ لاسحاق الموصلي وقربه هارون الرشيد ثم سافر إلى الأندلس ودخل قصر عبد الرحمان الثاني وتوفي بالأندلس في حدود سنة 852.

كان يجري لهذا الرجل 40,000 دينار ذهبا في كل سنة. وكان يعرف عشرة آلاف صوت من نغمات الغناء. وأنا لا أدري هل ذلك فوق مقدرة المغنين في عصرنا أم لا ؟ ولكني أعلم أنما عندهم أنما هو جزء مما كان عند زرياب وكان عالما بالعلوم العالية في ذلك الزمان كالجغرافية والطب والفلسفة مثل ما كان عالما بالموسيقى. فاخترع عطورا جديدة وأدهانا لتجميل اللون وجلب الأغذية والعقاقير ووضع طرازا صحيا للملابس وأصلح النظام السياسي وأوجد في الناس تهذيبا في الوجهة الاجتماعية. وكانت نوادره ولطائفه تروى حكما وأمثالا في جميع بلاد الاندلس.

وأين يوجد حتى في هذا العصر الحديث ملك مثل الحكم الثاني الذي كان له شغف بالعلوم حتى أنه كان له رجال يجمعون الكتب من جميع النواحي في إسبانيا وأوربا حتى صارت خزائنه الخاصة تحتوي على اقل تقدير 400,000 — وبعض المؤلفين يقول 900,000 كتاب خطي. وقد أضافوا إلى الأشعار العربية والفارسية تراجم أشعار اليونانيين. وترجموا بالعربية كتب أرسطو وأفلاطون واقليدس وسائر كتب المتقدمين. وألفوا كتبا كبارا تبهر العقول في الطب والجغرافية والفلسفة والفلك والكيمياء والتاريخ. ومؤرخو ذلك العصر يريدوننا أن نعتقد أن الحكم كان عالما بمضامين الخمسمائة ألف كتاب التي كانت تشتمل عليها خزائنه. وكانت تآليفه محل الاعجاب في جميع العالم. ولم يكن مستبدا (ارستوقراطيا) من الوجهة العقلية. وأنشأ في قرطبة عشرات المدارس غير ما كان بها من قبل، وأمر أخاه « وزير المعارف »، أن يسهل على جميع الناس اكتساب العلوم. والمؤلفون الذين يتجاهلون الحكم الثاني ويخوضون فيما وقع من عبد الرحمن الأول من القسوة على سبيل الندور والقلة ويفيضون في قسوة عبد الرحمن الثالث يخدعون قراء كتبهم.

وهذه الغيرة على بث العلم كانت عامة في ملوك المغربيين. ونظام التعليم عندهم يذكر بما كان من ذلك في رومية الوثنية ويبشر بنظام التعليم في هذا الزمان. وكان ذلك واديا خصيبا في صحراء الجهل الكبرى التي امتدت من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر لأن النصارى الاسبانيين خربوا مدارس الامة كما فعل أسلافهم النصارى. وسكوت الذي هو أقوى برهانا وأكثر تفصيلا اخبرنا مرارا أن المعارف كانت منتشرة في جميع الطبقات : — « كان في كل قرية مدارس كافية لحاجة

أهلها وكان التعليم فيها قائما على أفضل التسهيلات وأنفعها كل الأطفال الذين قعد بهم العُدم عن التعلم كانت الحكومة تعتني بهم وتؤسس لهم مدارس مجانية على نفقتها » (الفصل الأول ص 495).

لم تكن هناك قرية، وان كانت صغيرة جدا، داخل حدود المملكة قد حرمت من بركات التعليم، وكان التعليم عاما يتمتع به حتى أولاد أحقر الفلاحين. (الفصل الثالث ص 497).

وعلى هذا نقول أنه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة في حين كان ملوك بقية أوربا لا يقدرون أن يكتبوا أسماءهم في توقيعاتهم وكذلك أشراف الروم من أعلى الطبقات لم يكونوا يقتدرون على القراءة والكتابة وتسع وتسعون في كل مائة من أهل الممالك النصرانية كانوا أميين تماما. وكانوا على غاية من الجهل لا يمكن تصورها أضف إلى ذلك أن المعارف عند المور. كما ستراه قريبا كان معناها أوسع بكثير جدا مما كان في رومية الملكية. وكان لهم من الغيرة على العلوم مثل ما كان لهم من الغيرة على الشعر.

وكانوا يعتنون بالتعليم العالي ويعضدونه أكثر من التعليم الابتدائي. فقد كان في قرطبة ثمانمائة مدرسة. وكان التلامذة يأتون من أقاصي الأرض ليتعلموا فيها وكانت للفقراء منهم دور إقامة أعدتها الحكومة مجانا لهم، ولهم فيها أرزاق من بيت مال الدولة تقوم بحاجتهم من طعام وشراب ولباس وكانوا يعطون زيادة على ذلك شيئا من الدراهم معلوما لكل واحد منهم. ولم يكن هنالك اختصاص في التعليم الا لمن يريد التخلص من الدين. ولقد قال سكوت :

إن الجامعات والكليات في أقطار الاندلس كانت كافرة [1] ترحب باليهود والنصارى والمسلمين على حد سواء. وللمور مثل سائر معناه « افترق العالم فريقين

---

(1) وهذا أيضا يتناقض مع ما ذكره من قبل من تمسكهم بدين الاسلام وبناء المساجد والعطف على اليهود والنصارى إذا كانوا ذميين أو معاهدين وما جاء به الاسلام قال رسول الله ﷺ «من قتل مُعَاهِداً لم يَرَحْ رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسافة سبعين ألف سنة».

ــ فريق لهم علم بلا دين، وفريق لهم دين بلا علم [1] « وكذلك كان الأمر في بدء عصرنا الحاضر وفي أيامنا هذه وسينتهي هذا الطور بعد قرن أو نحوه ».

من ذا الذي لم يقرأ يوما من الأيام في مدرسة العمر العجيبة، تأسيس الجامعات الأولى الذي ألهمته النصرانية » بزعمهم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؟ وإني سائل والعجب آخذ مني كل مأخذ فقائل » كم واحدا ممن قرأ كتابي هذا قرأ قط أن اسبانيا المحمدية كانت قبل ذلك بثلاثة قرون متعطشة حرى ولا حرارة المحموم للتعلم ــ للعلم الحقيقي ــ لالترهات كمكاتب القرون الوسطى القشرية. وكان العلم هناك بلاشك ــ عند المور ــ مائة مرة أكثر انتشارا. وكان هو الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في القرون الوسطى ؟ فانظر كيف يكتب التاريخ إلى اليوم متبعا فيه هوى الدين ــ يعني النصراني.

ولم تكن حرية الفكر في الأندلس، التي أقل ما يقال فيها أنها كانت حالها أعلى وأجل بكثير منها في الممالك النصرانية، لم تكن هي وحدها تغذي حب العلم والولوع بل كان يثيره اجلال العلماء الذي زال من الدنيا بزوال دولة الأندلس ولم يرجع بعد إلى الدنيا. ولم يكن الخلفاء يقتصرون على اكرام أكابر العلماء بالجوائز والصلات العظام من المال، بل كانوا يتخدونهم أصدقاء وخاصة أصفياء ويولونهم أجل المناصب في الدولة والقصر. وكان لملوك المور رأي صائب ينبغي أن يكون قدوة لجميع المدنيات. وهو أن الرجال اللائقين بتدبير المملكة وإدارة شؤونها ليسوا البلغاء في الأقوال، أو المكرة ذوي الكيد والدسائس بل رجال العلم الذين برهنوا على كفاءتهم بسمو أفكارهم وثقوب أذهانهم. ولم يكن العلماء في الأندلس يعيشون في المعامل المظلمة. ونظر الناس واعتبارهم منصرف إلى الأشراف والاجناد ورجال السياسة. بل كان العلماء من أكثر الناس مالا ونعمة. وكان الناس لهم أشد حسدا. ولم يكونوا يحسدونهم على قصورهم الملكية وكثرة خدمهم وحشمهم، بل على علمهم. وهذا يدلنا على أن الأمة كلها كانت محتفلة بالعلم والأدب عارفة

---

(1) يريد بذلك قول الشاعر :

اصبحت فيمن له دين بلا ادب ... ومن له أدب خال من الدين
بقيت فيهم غريب الشكل منفردا ... كبيت حسان في ديوان سحنون

قدرهما. ولم تكن النساء محرومات من المشاركة في ذلك. وتجد في تأليف سكوت كثيرا من فُضْلَيَاتِ الاديبات منهن. وترى أن النساء كن يساجلن الرجال في المحافل العامة حيث كان الحائزون قصب السبق في النظم والنشر ينالون جوائز عظيمة.

ولا ينبغي للانسان أن يغلو ويتجاوز الوسط إلى الطرف الآخر فيزعم أن العلم في الاندلس كان قاصرا على زخرف القول والتطفل الظريف، وان الماهر في نسج الألفاظ كان أسعد الناس حظا بعيش الترف والكسل ؟ كلا، فإن نشاط العلماء في أعمالهم كان مدهشا فقد وصلت إلينا أمثلة رائعة من بدايات علومهم التي تفوق نهايات غيرهم، وجريدة أعمال المشهورين من علمائهم بلغت في العظمة إلى حد يكاد المرء أن لا يصدقها، ولكن سكوت أخبرنا بأن كتاب المور مع سعة خيالهم وإبداعهم في الوصف وتأنقهم فيه صادقون فيما يذكرونه من الحوادث.

وقد نسبوا إلى ابن الختيل (كذا)[1] ألفا ومائة كتاب في الفلسفة والتاريخ والطب، وان ابن حسن (لعله ابن حزم) ألف اربعمائة وخمسين مجلدا في الفلسفة والقانون[2] وكانت لهم معلمات عدة تزيد مجلدات احداهن على خمسين مجلدا. وعدد المؤرخين منهم يزيد على ألف على ما قيل فياالله كم ضاع من علم وأدب كان طعمة للنيران التي أوقدتها أيدي الرهبان حين « طرد الاسبانيون الكفار من أوربة » كما يزعم المدرسون. وكان قسم كبير من تلك الكتب في علم الكلام فلا تستحق أن تعتبر هنا وكان علماء المسلمين قد جاؤوا إلى الاندلس من كل رجا من أرجاء الدنيا. وأحيانا كان يتسرب إلينا المتعصبون من أهل إفريقية فيؤيدون السلفيين الجامدين وينشأ غمام مظلم في سماء الوجهة العقلية في اسبانيا بتافه قول من قال : ان الضعف الوحيد الذي كان في أهل الاندلس انما أتاهم من قبل دينهم[3]. ومن

---

(1) لعله ابن الطفيل أو ابن الخطيب.

(2) ان كان يريد ابن حزم فانه لم يؤلف في القانون أصلا كسائر علماء المسلمين في اسبانيا وانما الفه في الفقه الاسلامي المبني على الكتاب والسنة.

(3) سبحان من أنطقه بهذا الكلام. وكأنه نسي ما نسبه إليهم قبل من الالحاد والكفر وعدم الايمان بأن القرآن من الله.

القواعد الثابتة أن أكثر علمائهم اختصاصا بأمور الدين هم الفلاسفة وأنهم صرحوا جهرة بذم علم الجدل الكلامي حتى الاسلامي منه. وكانوا يعرفون جميع ضروب الفلسفة هندية كانت أم يونانية، الا أن أرسطو كان هو المعلم الأكبر في نظرهم. لما تكلم الشاعر الكاثوليكي دانتي [1] في القرن الثالث عشر على الفلسفة لم يذكر ولا رجلا واحدا نصرانيا : وانما ذكر بعده ابن سينا وابن رشد وساوى بينهما وبين المعلم الأكبر في الشرف حيث سمى الجميع « آل بيت الفلسفة » وذلك يدلنا على أن الفضل في النهضة الفكرية في أوربا يرجع إلى المور الذين أحيوا فلسفة اليونان بعد دروسها، قبل النهضة الأروبية الأخيرة بأربعة قرون.

وكان أرسطو يكره الهُرَاء الفارغ الذي يسمى فلسلة أفلاطون في الالاهيات وما وراء الطبيعة. وكان ارسطو أفضل من عرفت العرب من الحكماء وأعظم تحقيقا للمسائل العلمية . وأنه ليزيدنا إعجابا بهذه الأمة أمة الشعراء وعشاق الجمال انهم قدسوا ارسطو، حتى كادوا يُؤَلهونه. وما بلغ عمر ابن سينا ست عشرة سنة حتى صار من كبار العلماء، وصار وزيرا عظيما وهو ابن ثلاثين. واقيروس (واسمه الحقيقي ابن رشد) هو الذي الف الشرح الشهير لكتاب ارسطو (وذكره دانتي في كتابه « انفيرتو جهنم » وهو الذي أثنى عليه حتى الراهب « سافونارولا » [2] وقال فيه ذلك رجل كانت له عبقرية ربانية. وكان مكبا على الدرس ومنهمكا فيه، حتى إنه لم يترك الدرس الا ليلتين في حياته. ليلة عرسه، وليلة وفاة والده. وكان يعتقد أن الأديان المنزلة كلها كذب. ولعل الكتاب الذي ألف في القرون الوسطى وسمي « الكذابين الثلاثة، موسى وعيسى ومحمد » كان من نتائج قول هذا الرجل الذي يحق ان يسمى قولتير زمانه ــ دين اليهود يصلح للصبيان

---

(1) Danle (2) (سافونارولا Savonarolla) (1452 ــ 1498) كان راهبا ايطاليا ومصلحا. وكان والداه يريدان ان يجعلاه طبيبا ؛ ولكنه مال الى الفلسفة وقرأ التآليف العربية التي الفت في فلسفة أرسطو فأثر ذلك فيه شكوكا في دينه وعشق بنتا لجاره فخطبها إليه فلم يقبل. ولعل هذه الحادثة غيرت فكره فدخل الدير وبقي هناك ست سنين في زهد وسكون ؛ ولكن القصائد التي نظمها في تلك المدة تشعر بأنه ينقم على الكنيسة ما كان يوجد فيها من الفساد. ونال شهرة عظيمة فصار سادنا لكنيسة (سنت مارك) فأكسبه ذلك نفوذا عظيما. نشأت مشاغبات بينه وبين البابا فقبض عليه وعذبوه عذابا أليما. ثم حكموا عليه وعلى تلميذيه بالقتل وكان احدهما مبتهجا بالقتل مع معلمه وأما الثاني فكان كئيبا. وقصارى طلبه بعد الحكم ان يجتمع بتلميذيه فنال مطلبه. ولما اجتمعوا وجدوا ان الدولة قالت لكل واحد منهم : إن صاحبيك قد اعترفا بخطيئتهما وكان قولها كذبا مبينا. ثم صلبوهما بعد أيام قليلة واحرقوا اجسادهما.

ودين النصارى نسيج من المستحيلات ودين الاسلام لا يصلح الا للخنازير [1].

ومن المحقق الذي لا ريب فيه أن أرسطو كان لو أن اليونان استمروا على التقدم في علومهم الأولى — عالما كبيرا بالطبيعيات والعلوم وبما وراء الطبيعة على السواء.

وأما فلاسفة المغربيين كابن رشد الذي كان طبيب الأمير ورئيس قضاة قرطبة، فانهم خدموا العلم والفلسفة سواء. وكان على ذلك المتخصصين في العلوم هم الذين خدموا العالم أعظم خدمة. وتؤليف صغير كهذا لا يسع شرح ما عمله المور في خدمة العلم ولو بغاية الاختصار، ولا سيما خدمتهم للرياضيات والفلك والكيمياء والطب.

والفصول الطوال الثمانية والعشرون التي يحتوي عليها كتاب سكوت ليست الا اشارة مختصرة لأعمال المور العظيمة. ولا ينصفهم بشرح أعمالهم الا مجلد ضخم.

وكان علم الهيأة من أجل علومهم التي هذبوها أحسن تهذيب. وكان علماء الفلك في بغداد هم الوارثين لعلوم بابل والاسكندرية وانتقل ذلك إلى الاندلس. وكانت بيوت العبادة — المساجد — تستعمل مراصد لمراقبة حركات الأجرام السماوية كما كان في بابل. فكانوا يرصدون النجوم على رؤوس المنائر. ولعل الكلديين (ولا نقل الكلدانيين) علماء الفلك منهم، قد اكتشفوا كل ما يمكن اكتشافه بالعين المجردة، ولكن علماء الفلك من المور كانت لهم آلات ذات دقة وإحكام مركبة على رؤوس المنائر. ولم يكن عندهم (تيلسكوب) طبعا، وان كانوا هم الذين وضعوا أساس علم النور والمرئيات وروجربيكن [2] مدين لهم باكثر مما يتصور المعجبون به من الكاثوليكيين. وكانت عندهم عشرة أنواع من الاسطرلاب.

---

(1) اقول لقد اخطأ هذا الكاتب في التقسيم وجعله قسمة ضيزي لأن الأنسب ان يكون دين الخنازير هو الذي يحب اهله الخنازير ويأكلونها، والانصاف عزيز في الصدق، فكيف في البهتان ؟ ونحن ننزه الامام ابن رشد عن هذا القول المرذول. وهذه كتبه شاهدة بضد ما زعمه المؤلف وعزاه إليه من غير ترو ولا برهان.

(2) (روجر بيكن Roger Bacon) (1214 — 1292) الفيلسوف العالم الانكليزي دخل جامعة اوكسفورد واحرز شهادة « معلم علوم » ثم ذهب إلى باريس. وكان يلقي محاضرات في مؤلفات ارسطو. ولم تكن محاضراته ناضجة الا أنها كانت تدل على سرعة ادراكه وثقوب ذهنه. ثم اضطر إلى ترك الاشتغال بالعلوم لمدة وجيزة لاختلال صحته :

وعدة آلات أخرى عدا ما عندهم من الكرات الأرضية والسماوية وقد اكتشفوا أن « الصاعقة » وتسمى في غير إسبانيا من بلاد أوربا « النجم الثاقب » كتلة كثيفة تدخل جو الأرض، ولهم رأي صائب في ارتفاع الهواء وقلة كثافته. ووضعوا جداول لحركات النجوم ووضعوا أول استنباط مدقق لفصول السنة وأدركوا الشذوذ الواقع في مدار الأرض ووضعوا رقوما لتعاقب الاعتدالين.

والكيمياء الأولى لفظ عربي وكذلك الجبر وهناك ألفاظ أخرى عربية تذكرنا بما للمحمديين علينا من فضل في الوجهة العلمية. لقد استنبط المور قواعد الكيمياء ولو أن مدنيتهم أبقي عليها واستمر تقدم ثقافتهم لكنا اليوم نعيش في عالم أعجب وأرقى مما نحن فيه. والعرب هم الذين اخترعوا البارود، لا أهل الصين كما يتوهم العامة ــ ولست أعني أن اختراع البارود نعمة وإنما ذكرته آية على خصب عقول المور وأنه من ثمرات علومهم وهم أول من صنع البندقيات. وصنعت المدافع في غرناطة في القرن الثالث عشر. ولاشك أن الكيمياء القديمة هي الصورة الابتدائية للكيمياء الحديثة. ولقد كان فيها ضياع عظيم للاوقات في تتبع الأوهام، ولكن من الواضح أن العلم لابد له أن يجتاز ذلك الطور قبل أن يصل إلى تحليل المركبات المادية وردها إلى عناصرها الاولى.

ولهم فضل عظيم في السبق إلى خدمة الطبيعيات لمهارتهم في الرياضيات. ورسموا جداول للثقل النوعي ــ أو الجاذبية الارضية. وقدروا تخمينا طبيعة الجاذبية الشعرية ــ نسبة إلى الشعرة لدقتها ــ وهم المخترعون الحقيقيون لبيت الابرة ــ المسماة عند العامة بالبوصلة ــ وأما أهل الصين فانما أوصلوا إلى العرب علم مناسبات الابرة المغنطيسية، والعرب هم الذين ركبوها في دائرتها وأتحفوا الملاح بهذه الآلة التي لا ثمن لها عنده. واخترعوا الساعة الكبيرة ذات (البندول) والعجلة.

ــ لكنه ثابر على التآليف وعزم على تأليف كتاب جامع في الطبيعة لكنه رأى ان هذا العمل كبير فبادر بتأليف بعض الرسائل ثم عاد إلى انجاز عزمه. وكتب إليه البابا يلتمس منه ان يبعث إليه بنسخ من مؤلفاته. وكان منسوبا لجمعية الرهبان المعروفة بفرانسيسكان ، ولكنه لم يتردد في الرد عليهم ولا سيما على علمائهم. وكانت حرية فكره سببا للقبض عليه وحبسه من سنة 1277 الى 1292. وتآليفه كثيرة في التاريخ والفلسفة والطبيعيات ويقال انهم حبسوه عشرين سنة ومنعوا عنه الكتب وأدوات الكتابة والآلات العلمية.

واتقنوا الميزان وهم الذين أبدلونا الرقوم العربية « والحقيقة أنها هندية » بالرقوم الرومية الثقيلة المتعبة [1]. وهم الذين استنبطوا قواعد علم النور والمرئيات التي هذبها فيما بعد روجر بيكن. ووضعوا قواعد الكهرباء التي بنى عليها كربرت [2] مباحثه. وحتى علم طبقات الأرض (جيولوجيا) قد اشتغلوا في أساسه. ووقفوا على السنة الكونية في التفتت ودرسوا طبيعة الصخور.

وأما علم المعادن (مينورولوجي) فقد خدمه حكماء العرب في القرن العاشر. قال الدكتور « وودورد » [3] في كتابه (هيستري اوف جيولوجي ــ تاريخ علم طبقات الأرض [4] « ومن الذين ألفوا في المعادن وتركيبها الطبيب ابن سينا » « على حين كان المور هم قادة العلوم في الغرب » وقال الاستاذ فوربز [5] في كتابه (ذي هيستري أوف استرونومي ــ تاريخ علم الهيأة [6]) « وابن رزق الله من أهل طليطلة أضاف تحسينا عظيما إلى الجداول الشمسية » وقال الأستاذ ميال [7] في كتابه (هيسترى لوف بيولوجي ــ تاريخ علم الحياة [8]) « عند الكلام في العلوم على وجه عام « لقد تقدمت العلوم بسرعة تحت حكم الخلفاء » وقال « سراد وارد ثورب [9] » في كتابه (ذي هيستري اوف كيمسترى ــ تاريخ علم الكيمياء الجديدة [10]) « لقد تقدم علم الكيمياء الجديدة تقدما معتبرا » والحقيقة أنك لا

---

(1) في هذا نظر من وجهين. الأول ان رموز الغباري التي أنشأها المغربيون في اسبانيا مغايرة للرموز المسماة بالهندية. والثاني ان هذه أيضا لم نجد دليلا بعد البحث الشديد على انها انشئت في الهند. بل الذي تدل عليه الدلائل التاريخية ان المسلمين من اسبانيا هم الذين احدثوا هذه الأرقام التي يستعملها المغربيون اليوم وقد استعملها اسلافهم مائتي سنة قبل ان تأخذها منهم الأمم الاوربية وانظر في المعاجم الأوربية الانجليزية مثلا تجد اسمها « ارابيان فيغرس » اي الرموز العربية وهذا لاشك فيه ومن استراب فالعرب بالباب فان هذا الذي ذكرته موجود في جميع المعاجم الانجليزية في مادة Arab ومعناها عرب وكان الأوربيون قبل ذلك يستعملون الرموز الكثيرة الأشكال التي لازالوا يستعملونها في بعض الأحيان في مقدمات الكتب.

(2) Gerbert

(3) Dr. Woodward

(4) History of Geology

(5) Professor Forbes

(6) History of Astronomy

(7) Professor Miall

(8) History of Biology

(9) sir Edward thorpe

(10) History of chemistry

تجد البته علما من العلوم الا والفضل الأكبر فيه للمحمديين من أهل المغرب وأهل الأندلس. وأعظم من ذلك كله أن لهم الفضل علينا في إحياء العلوم وبث روحها وعزمهم العظيم على ان يجدوا قواعد صحاحا لسنن الطبيعة الحقيقية، وان كانت منعت من التقدم بضعة قرون بسبب ضغط الكنيسة ولكن لم يمكن محوها من ذهن الانسان.

وسجية الانسانية الكاملة التي كانت متمكنة من المور حملتهم على أن يعنوا عناية خاصة بعلم الطب. وكان علم الكيمياء عندهم في أول الأمر إنما هو علم إضافي لتكميل علم الطب أي علم العقاقير. ووجد المور في هذه الوجهة أمامهم عقبة كؤودا بسبب المتعصبين من أهل عقيدتهم ـ الدين أيضا ! » ـ لأن دين المحمديين لا يبيح تشريح الأجسام البشرية. ويعتقدون أن الروح تبقى في الجسم زمانا بعد الموت فلذلك لم تتقدم الجراحة إلا قليلا وبقيت في يد الحجام، ولكن قلّما نشك في أن كبار مدرسي الطب من المغربيين واليهود شرحوا الحيوان بل لايبعد أن يكونوا قد شرحوا أجساد الأناسي خفية. وعلى كل حال فخدمة الأطباء العملية كانت قد ارتقت هناك إلى مستوى عال وكانت بقية أوربا في الحضيض الأسفل. وكان أكثر العلماء كيفما كان علمهم أساتذة ماهرين في الطب. ويروى أن دور الأطباء حتى أكابر الأغنياء منهم كانت مفتوحة في كل وقت للفقراء. وهم الذين أدخلوا كثيرا من العقاقير الجديدة إلى أوربا.

ولم يكونوا في خدمة التاريخ أقل حماسة منهم في خدمة العلوم والفلسفة والشعر. وتقدم علم تخطيط البلدان (الجغرافية) عندهم تقدما أساسيا لأن المغربيين كانوا ملاحين شجعانا حذاقا في الملاحة في وقتهم. فكانت رحلهم واسعة على قدر طموحهم وولعهم الشديد بحب الاستطلاع والتنقيب. وليس فضلهم في خدمة علم النبات بأقل مما سبق لأن الخلفاء بعثوا العلماء لمراقبة الأعشاب والبقول عن كثب في جميع أقطار اسبانيا. وكانت حدائقهم فنية على مقتضى علم النبات، تحتوي على طرائف الشرق والغرب، وكانت عندهم أيضا طوائف أنواع الحيوان لدرس علم الحيوان ولهم ملاحظات وتنبيهات في التاريخ الطبيعي تختلف عن القصص الجاف الذي يرويه أهل البلدان الأخرى.

وهذه الأخبار وإن كانت مختصرة جدا فهي كافية في دلالة القاريء على أن المغربيين هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها. والحق أقول، أن هلاك ثقافتهم الذي يبدي ويعيد المقررون في تقريره ببلاغة ويسمونه « طرد الكفار » قد اوقف رقي النوع البشري مدة من الزمان. ومهما كان فلم يكن إطفاء أنوار علومهم كلها. ولهم أولا ثم لليونانيين الأقدمين بواسطتهم يرجع الفضل في ايجاد طلائع العلم من النصارى ككربرت وروجربيكن وآلبيرت الكبير [1] وكروستست [2] فهم الذين علموهم.

فاقرأ مثلا سيرة كربرت تجده قد ولد في جنوب فرنسة وتعلم في برشلونة ثم في جامعة قرطبة. فكل ذرة من علمه المعتبر جاءت من المغربيين. فتح كربرت مدرسة في ايطاليا فقامت قيامة الرهبان وأثاروا الرعاع عليه فاحرقوا مدرسته وكسروا أدواته وشتتوا شمل تلاميذه. والحكام الماديون لم يسعهم الا أن يكرموا عالمهم النصراني، الذي ليس لهم غيره. فبمساعدتهم صار أسقفا ومن مساخر التاريخ أنه صار بعد بابا وسمى (سيلفيستر الثاني) وكان ذلك في أسفل عصور البابوية. وبعد أربع سنين مات وهناك تهمة قوية أنه مات مسموما فلعنت الكنيسة ذكراه ثم هي اليوم تفتخر به !!!

لكن روح علوم المغربيين الحقيقية لم يمكن قتلها. فثقب نور مدنيتهم المشرق ضباب الخرافة والجهل ونتج شيء من الحياء ومكارم الاخلاق. وحرك رغبة أوربا في

(1) آلبيرت الكبير Albert the creat « 1193 — 1280 » كان يلقب كونت بولستاد وكانوا يسمونه عالم العصر. ودخل في سلك الرهبان وغين أسقفا لبلدة راتيسون ثم استعفى وآثر العزلة في سنة 1262 وذهب إلى كولون ليمضي بقية عمره في التأليف والتصنيف وتوفى هناك. وقد ترك أحدا وعشرين مجلدا. وكان يفوق جميع علماء زمانه في سعة علمه. وكان يقلد ارسطو تقليدا تاما. وكان ضليعا في شروح كتاب ارسطو التي ألفها العرب واليهود والاوربيين وكان يريد أن يوفق بين آراء أرسطو وآراء الكنيسة.

(2) روبرت كروستيست Robert grosseleste« 1175 — 1253 » درس في لنكن واوكسفورد وباريس. وتعين في منصب المعلم الأول وعلم الكلام ثم صار اسقفا. وبادر فورا إلى إزالة المفاسد الموجودة في الكنيسة فأثار على نفسه حقد ألبابا انوسينت الرابع، لأن البابا كان يمنح المناصب الدينية في بريطانيا الى أوباش الروم الذين كانوا يقبضون رواتبهم ولا يكلفون انفسهم بالذهاب الى بريطانيا. وكان كروستيست يبدل كل جهد ضد هذا المسلك. ولذلك وقف عن مباشرة منصبه موقتا وكان دائما معرضا لخطر الحرمان. وفي آخر سنة من سني منصبه عصى أمر البابا بتعيين ابن اخيه أي البابا في منصب ديني ويقال ان البابا حرمه وكفره بسبب ذلك ولكن اتباعه الدينيين كانوا خاضعين له. وقد ترك آثارا عديدة من الكتب بلغ فهرستها 25 صحيفة مطبوعة بالحروف صغيرة.

العلوم العقلية. وفي القرن الحادي عشر « التالي لعصر قرطبة الذهبي » أخذت اروبة تخرج من بربريتها. ومعظم أسبابه التقدم السياسي الذي نشأ عنه التقدم الاقتصادي. فصارت القرى مدنا والمدن الصغيرة أمصارا. فالعامة أحرزوا قسط من العلم والأشراف طمحوا إلى المعالي. ولما حصلت اليقظة الفكرية في الممالك النصرانية كان لازما ان تؤثر فيهم المدنية الأندلسية الزاهرة آثارها [1].

---

(1) يقول المترجم من عجائب الزمان اذ أحيا أهل الاندلس أهل اروبا فجزوهم بان أماتوهم.

اريـــد حياتـــه ويريـــد قتلـــى عذيـــري من خليلـــي من مراد

وسبحان الحي الدائم.

الفصل الخامس
في أعمال اليهود

كان لليهود نصيب في ثقافة المغربيين وفي النفع العميم الذي انتشر منها في جميع أقطار أوربا فناسب أن نخصص فصلا قصيرا لهم. وليس هناك موضع أسفت على ضيق المجال فيه طبقا لبرنامجي مثل ما أسفت عليه في هذا الكتاب لأن تاريخ المغربيين عظيم وخدمتهم للنوع الانساني عظيمة جدا ومهمة، وقد غمط أكثر المؤرخين حقهم، ولعبت أيدي المؤلفين المتعصبين لدينهم دورا عظيما ومكروا مكرا كبارا في اخفاء فضلهم فوجب علي أن أقف وقتي أؤلف على الأقل ستة كتب مثل هذا في الاشادة بآثارهم. ولكننا سنوفي التاريخ الديني للنوع الانساني حقه كاملا وسأجهد نفسي فأبدي تنبيهات قليلة عامة في شأن المغربيين.

كان عدد اليهود في إسبانيا على ماقيل يناهز مائة ألف حين دخلها المغربيون في القرن الثامن. وكان ملوك القوط الغربيين يعاملون اليهود مثل ما كان يعاملهم أهل سائر البلدان النصرانية في أوربا. كانت العامة تعاملهم بغاية الاحتقار والقسوة والوحشية لما يسمعون في حكاية الانجيل وفي مواعظ القسيسين. وكان حكام الكنيسة وحكام الدولة ينهبون ويتلفون أموالهم بلا حياء ولا رحمة. فانظر كيف صار مؤسسو الدين النصراني عبيدا في الممالك النصرانية ! [1].

ولكن يهود إسبانيا الذين هاجروا إلى هناك في أيام مدنية الروم — انتعشوا وتوقعوا خيرا لما سمعوا بأنه قد قام دين جديد في الشرق يسوس الناس بسياسة

---

(1) يريد المؤلف بهذا ان المسيح اسرائيلي وهو الذي أسس النصرانية فكيف يصير قومه بنو اسرائيل عبيدا لعبيد أخيهم المسيح. ربما أراد غير هذا كما أشار إليه سابقا. وهو أن بولس هو الذي أسس الدين المسيحي الحاضر وهو يهودي فكيف يجوز أن يعامل قومه بتلك المعاملة ؟

جديدة ويعامل أهل إخوانهم في البشرية بالاحسان. وعداوة المسلمين لليهود التي نراها اليوم انما حدثت فيهم منذ عهد غير بعيد. فالمحمديون الأحرار من أهل دمشق لم يكن يخطرهم الحقد الديني ببال. ولذلك عاملوا اليهود بغاية التسامح. سمع اليهود أن أولئك القوم المتنورين قد وصلوا بلاد مراكش ثم طمحوا بأبصارهم فوجدوا من اليهود حلفاء وأنصارا في كل مدينة.

جاء المور مغيرين لأجل الغنائم ولكنهم لم يلبثوا أن وضعوا قاعدة لسياسة جديدة كما رأينا. وكان لليهود في تلك السياسة الجديدة مقام رفيع شريف. وكانوا مثل النصارى يؤدون فريضة مالية قليلة، ويلبسون لباسا خاصا ويسكنون في محلات خاصة. ولكنهم سرعان ما برهنوا على عبقريتهم التي لا تدفع وارتقوا إلى المقامات السامية في المدارس ومناصب الدولة. وكان للنصارى مثل ما كان لهم من الحرية سواء ولكن النصارى لم يكن لهم مثل ما لليهود من الكفاءة. وهناك شيء آخر كان يقرب بين اليهود والعرب ألا وهو التوحيد، لأن دين اليهود دين توحيد فكان يروق للعرب ويلائم ذوقهم من الوجهة العقلية أكثر من أوهام أساطير دين النصارى الذين لهم شرك جاف متبرقع ونسج من الخرافات في عقائده وأعماله. زد على ذلك أن العرب واليهود كلاهما من سلالة سام، وأيضا كان محمد يميل إلى اليهودية أكثر من ابنتها الشوهاء [1].

وقبل ذلك ساعد اليهود العرب في ثقافتهم في الشرق. ويقول لنا سكوت: أن أول كتاب ألف بالعربية كان مؤلفه يهوديا [2]. ولقد لخص خَدَمَاتِهِمْ في هذه العبارات (2 . 162) « كان اليهود مدرسين وتلاميذ ومساعدين للمغربيين. وكانوا خزنة وأمناء ومقامهم السامي في الاندلس صار مشهورا في جميع أنحاء أوربا، فأخذ أولاد ابراهيم المنكوبون في جميع أقطار أوربا ينسلون من كل حدب ويأتون من كل فج عميق إلى تلك الأرض التي تفيض عليهم لبنا فصارت لهم أمة ضمن أمة

---

(1) يعني المسيحية . وهذا غلط يرده قوله تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ الآية

(2) نحن نطالب سكوت بالبرهان على هذه الدعوى ونقول له : ما اسم ذلك المؤلف ؟ وما اسم كتابه ؟ وفي أي فن من فنون العلم هو ؟ ومتى وأين ألف ؟ ومن رواه عن المؤلف ؟ فإن لم يجب عن هذه المسائل فدعواه باطلة .

المغربيين ومع ذلك لم يكن بين الامتين أدنى تعصب أو جفاء. وكبار تجار اليهود الذين كانوا في البلدان الأخرى يجتهدون في اخفاء ما اكتسبوه بعرق الجبين من المال صاروا يتبوؤون قصورا كقصور الأمراء ويعدون في أعلى الطبقات من الوجهة الاجتماعية وفي الأندلس ارتقى اليهود الى أعلى مناصب الدولة وقد خلدت أسماء كثيرة من علمائهم الكبار منوطة بالتبجيل في سجل علماء المغربيين الواسع. والقسم الأعظم من علماء اليهود المعتبرين الذين اشتمل عليهم فِهْرِسْتُ بارثوكشيوس هم من إسبانيا.

ولم يكن هناك فرع من فروع العلم في ذلك الزمان الا وقد نالوا منه اوفر نصيب. و(الجداول الالفونسية) التي تعتبر أعظم عمل فلكي عمل في القرون الوسطى كان واضعو أصله هم الفلكيين من اليهود. وكانوا مولعين بالفلسفة جدا حتى قيل ان النسخ الموجودة بالعربية وجميع التآليف العربية التي الفها المغربيون ترجمت إلى العبرانية، وكان شباب اليهود يترامون بلهفة على الشعر والموسيقى والتاريخ والجغرافية والفلسفة الطبعية والكيمياء مثل ما كانوا يعنون بالرياضيات وما وراء الطبيعة. وكانوا بالخصوص أطباء نطاسيين. وكان كبار أطبائهم يقلدون المغربيون في التضلع من جميع الفنون الثقافية. فموسى بن ميمون المشهور في أنحاء الممالك النصرانية وحتى في التاريخ الحديث باسم « ميمونيد » كان أعظم مثل لهم في ميدان العلم. وهو من أهْل قرطبة تلقى علومه في جامعتها وكان يحترف الطب، ولكنه كان أيضا استاذا في العلوم والفلسفة. وما بلغ الثلاثين من عمره حتى صار عالما مبجلا من الطبقة الأولى. ثم هاجر آل بيته الى القاهرة وفيها صار طبيب السلطان الخاص. وكان ماهرا في الفلسفة وعلم العقائد اليهودية كليهما فحاول ان يوفق بين الدين اليهودي وبين المعقول. وأعماله المقنعة أكسبته تبجيل قومه حتى لقبوه « نور العالم » قال فيه أحد المؤلفين في تراجم الرجال « كان موسى بن ميمون عالما بالدين اليهودي وكان له تأثير بليغ عبقري في ترقية ذلك الدين حتى استحق أن يكون ثانيا لموسى المشرع الكبير نفسه ». وكان ابن عزرا هو الذي يليه من علماء اليهود في الأدب والعلم بالفلك والطب. والحقيقة أن نكبة اليهود اذ سلبهم النصارى الاسبانيون الفرصة الذهبية التي منحهم اياها المغربيون

كانت أدهى وأمر من العذاب المهين الذي كان يصب على رؤوسهم. ولولا ذلك لاختفى تعصب الربيين وجمودهم تحت تأثير أولئك الفلاسفة اليهود الموريين، ولوصل شعبهم إلى أسعد حال.

وكون اليهود لا وطن لهم جعلهم مفيدين في نقل الثقافة الجديدة إلى ما وراء حدود مملكة الأندلس، لأن المغربيين أنفسهم كانوا قليلا ما يزورون أقطار الممالك النصرانية المتوحشة. أما اليهود فكان لهم إخوان في الدين في سائر أقطار أوروبا تربطهم معهم علاقات تجارية وغيرها، فبهذا السبب نقلوا مدنية المغربيين إلى تلك الأقطار. وما كادت مناصب الحكومة تؤسس في اسبانيًا والبرتغال حتى تبوأ اليهود المقام الأعلى فيها.

كان (بدرو) الجبار قاسيا — وهو جدير بهذا الاسم — الا على اليهود فلم ينلهم شيء من قسوته فكانوا في مملكته سعداء الا في بعض الاحيان إذ يحرض القسيسون عليهم العامة. وكان طبيبه الخاص يهوديا ووزير أمواله يهوديا. وألفونسو الثامن جعل تدبير أمور السياسة في مملكة قشتالة [1] وليون بيد طبيب يهودي. والفونسو التاسع اتخذ غادة يهودية محظيته. وأمثال هؤلاء الوزيرات أقدر بكثير من رجال السياسة.

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا　　مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

والفونسو العاشر الحفيظ على علم الفلك والذي بأمره ألفت (الجداول الفلكية الألفونسية) وهو أعلم ملك نصراني في زمانه. استخدم اليهود في ادخال علوم المور، الفلك والطب والفلسفة إلى بلاده. وإنما تغلب الاسبانيون والبرتغاليون على المور في أعصر طوال، وفي أثناء ذلك كانوا يقتبسون بتعطش مدنية المغربيين.

واليهود هم الذين نقلوا ثقافة المغربيين إلى ما وراء حدود جبال بيرينه (بيرنيس) وعبروا بها البحر إلى ايطاليا وكانت مدنية المغربيين الزاهية وتسامحهم مشهورين في باريس في القرن الثاني عشر حتى ان « بيتر ابيلارد » فكر في

---

(1) وليون بيد طبيب يهودي.
قال المترجم لعل الصواب : وليون عولج بيد طبيب يهودي.

الالتجاء اليهم ليتم استقراء دروسه العلمية في أمان [1]. والأطباء اليهود الذين تخرجوا في اشبيلية وقرطبة كانوا يطلبون العمل في كل مكان. وهم الذين نقلوا معظم ثقافة العرب إلى الآفاق كما قال سكوت (3 — 149) : « كان اليهود أعظم الوسائط في إدخال مدنية المغربيين إلى اوربة وجعل أهلها يتأثرون بها. والتاجر اليهودي الذي يخاطر بماله بل بحياته أيضا ضرب بسهم وافر في نشر الكتب الخطية والعقاقير الطبية والعطور والحرير والكتان والمعادن النفيسة وأدوات الجلد والجواهر الغالية والأدوات المرصعة والمنبتة والمزخرفة بالنقوش. وبذلك عرف العالم أن في اسبانيا إلهاما وعبقرية حاجة أهل اوربا اليهما شديدة.

وحتى حين داس الاسبانيون مدنية المغربيين وعفروها بالتراب، كما فعل أسلافهم الفنداليون والقوط بمدنية الروم، وحتى حين نفي اليهود وتشتتوا في البلاد بسبب نكبة المحنة (محاكم التفتيش) التي كانت غاية في القسوة الوحشية حمل اليهود معهم مدنية المحمديين إلى كل مكان. وخلت البلاد الاسبانية كليا من الأطباء بعد ما أُجلي اليهود منها. وذهبوا إلى بلدان أخرى فعمروها وأفادوها بطبهم بدلا من اسبانيا. وكان خلق منهم وصلوا قبل ذلك إلى جنوب فرنسة حيث انشئت أوليات المدارس الطبية النصرانية. وفي شمال ايطالية حيث نراهم قد عملوا بجد ونشاط في أول تاريخ البندقية وجنوة وفلورانسة والدول الجديدة. ولقد جزتهم الممالك النصرانية جزاء سنمّار فأهانتهم وأساءت معاملتهم مع أنهم هم الذين علموها وحي الانسانية الذي أنقذها من الهاوية التي أرداها فيها دينهم الذي يزعمون انه أعلى الأديان.

(1) بيتر ابيلارد Peter Abilard (1079 — 1142) كان أعظم مفكر وأجسر رومي في القرن الثاني عشر. وكان يدرس العلوم الدينية والطبيعية في كلية « روتردام » وفي تلك الأثناء عشق « هيلوه Heloise » وكانت آية في الجمال والكمال وفر بها الى « بريتاني » واتخذها زوجة فولدت له ولدا. ثم انكرت هيلوه تزوجها به لئلا يمنعه ذلك من الترقيات الروحانية. وغضب عليها عمها « فيلبرت Fulbet وعذب ابيلارد وقطع بعض اعضائه حتى يكون ناقص الخلقة وعاجزا عن القيام بالمراسيم الدينية. فانخرطت هيلوه في سلك الراهبات ودخل ابيلارد ديرا ؛ ولكن تلاميذه لم يفارقوه ؛ بل التفوا حوله. فعين رئيسا لقسيسي بريتاني Britanny وكان يجادل ويخاصم الرهبان هناك مدة عشر سنين وآخر الأمر اضطر إلى الفرار إلى بلدة تسمى كلوني Calugny وعاش فيها عشية الناسك : وعلى ذلك لم يتركه اعداؤه يستريح فاتهموه بالكفر والزندقة فحكم عليه مجلس القسوس وصدق البابا حكمهم بالكفر والحرمان وبينما هو مسافر إلى رومية ليدافع عن نفسه مات فدفنت هيلوة جثمانه في « باركليت Paraclete واوصت ان تدفن إلى جانبه فلما توفيت نفذت وصيتها ودفنت إلى جانبه. وقد ألف كتبا في الفلسفة والتاريخ الديني. وتوجد حتى الآن الرسائل العشقية التي وقعت بينه وبين هيلوة.

الفصل السادس
الظفر الاسباني في أيام المحنة (محاكم التفتيش)

لم آسف على اختصار هذا الفصل الأخير من كتابي هذا، لأنه من أعظم طوام التاريخ المحزنة. لما ضعف المغربيون بسبب أنهم تقطعوا أمرهم بينهم زبرا وتبدل حكم العرب الأحرار [1]. بحكم البربر الذين هم غير أحرار لما جاؤوا مددا من

(1) قوله : وتبدل حكم العرب الأحرار بحكم البربر إلى آخره لقد خبط المؤلف خبط عشواء في ليلة ظلماء فان المغربيين الذين أبدأ وأعاد في مدحهم كلهم من البربر الا أنهم كانوا ثلاث دول الدولة الأولى دولة الملثمين وتسمى دولة المرابطين واللمتونيين وأول ملك منهم يوسف بن تاشفين وهو أول من دخل الأندلس من المغرب حين استغاث به أهل الأندلس حين ضعفت الدولة الأموية العربية التي أولها عبد الرحمٰن الداخل الذي فر من دمشق إلى اسبانية في سنة 138 للهجرة وأسس الدولة العربية الأموية في الأندلس وفي سائر بلاد اسبانية والبرتغال واستمرت هذه الدولة إلى سنة أربعمائة وسبعين فانقرضت وطغى النصارى على المسلمين واستغاثوا بسلطان المغرب يوسف بن تاشفين رحمه الله وقاتل في معبر مضيق جبل طارق وقاتل النصارى ونصره الله عليهم واسترد البلاد كلها إسبانية والبرتغال وجنوب فرنسة إلى « بواتيي » بينها وبين باريس ثلاثمائة كيلو متر سنة سبع وسبعين وأربعمائة، ولما انقرضت الدولة اللمتونية خلفتها الدولة الموحدية وأول من ملكها عبد المؤمن بن علي فلما انقرضت الدولة الموحدية خلفتها دولة بني مرين ولما تم لهم الحكم على المغرب كله في عهد أعظم ملك لهم وهو السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني جاءه وفد المسلمين من أهل الأندلس يستنصرونه على الطاغية الاسباني الذي كان ملكا على اسبانية بعد زوال دولة الموحدين فعبر اليه السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني مضيق جبل طارق وقاتل جيوش النصارى فانتصر عليهم واستولى على بلاد الأندلس من جديد وكان ذلك في صفر سنة أربع وسبعين وستمائة للهجرة وبقيت بلاد اسبانيا في جنوب فرنسة تحت حكم المرينيين إلى أن ضعف أمرهم بسبب التنازع الذي وقع بينهم على الملك كما وقع لمن كان قبلهم من الدول المغربية وآخر ملك منهم واسمه عبد الحق بن أبي سعيد المريني قتل في فاس يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة للهجرة وهكذا كانت نهاية الدول السابقة قبل دولة بني مرين ولو أنهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأستقام أمرهم واستمر حكمهم والعاقبة للمتقين ومن هذا نعلم أن الاستيلاء التام على الأندلس كان لعبد الرحمٰن الداخل الأموي ودولته إلى أن انقرضت وهذا زمان حكم العرب في الأندلس وبقيت البلاد الأوربية من اسبانية والبرتغال وجنوب فرنسة ثم ابتدأ حكم البربر المغربيين باللغة الفرنسية والانجليزية والاسبانية الا أنهم يسمون في اسبانية مورو ولما كنت في غرناطة ذهبت إلى ناحية الحمراء أبحث عن غرفة لأقيم فيها فانتهيت إلى بانسيون

مراكش. غزاهم الاسبانيون وأخرجوهم منها مدينة بعد مدينة. ولا أريد أن استصغر بشأن الجنود الاسبانيين وأعمالهم ولكن اذا حللناها بالتحليل الحديث، نرى أنها لا تشتمل على شيء من المعجزات. فأعلنت الحروب الصليبية ـــ أي الغزوات الدينية ـــ وكانت في الفظاعة والقسوة مثل الغزوة الصليبية التي غزا فيها البابا انوسنت الثالث الأليجينيين [1] فالصلبان التي يزين الأمراء والجنود صدورهم بها من الانكليز والفرنسيين والقشتاليين ـــ كانت هي الاذن في اطلاق العنان للنفوس الامارة بالسوء في النهب والسلب والأعمال الوحشية. [2].

تقدم الصليبيون وهم مزيج من كل جنس إلى قرطبة واشبيلية في القرن الثالث عشر، ومن ذلك العهد اخذت قرطبة التي كانت في علياء المجد تتقلص وتتضاءل حتى صارت قرطبة القرن التاسع عشر قرية حقيرة. ودمر هؤلاء تقريبا كل آية وان دقت من آيات مدنية المغربيين وذكريات فنونهم، حتى سووا كل ذلك بالتراب. نعم بقيت هناك منارة صغيرة ولكنها فخيمة، تسمى جيرالدا لتخبر العالم ماذا خسر هناك. وعمد أولئك الهمج الى الآلات العلمية فحطموها وجعلوها

= موجدت مكتوب على جداره فوق الباب « مطامورو » ومعناه قتال المغاربة فتعجبت من ذلك فقلت من كان معي من الاسبانيين أنا لا أريد أن أقيم في المكان يقتل فيه المغاربة فضحكو وقالوا هذا اسم قديم ولا يعمل به اليوم على أن كل من درس تاريخ اللغات السامية كيف ما كان جنسه عربيا أو عجميا يعلم يقينا أن البربر أصلهم من جزيرة العرب والدليل على ذلك أن الفعل المضارع في لغة البربر كله يبدأ بالهمزة إذا كان للمتكلم وحده ويبدأ بالنون اذا كان للمتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه ويبدأ بالتاء إذا كان للمخاطب ويبدأ بالياء إذا كان للغائب ويبدأ بالتاء إذا كان للغائبة ومن يعرف اللغة البربرية يعلم هذا يقينا فهناك علامة أخرى تتميز بها لغات الشعوب الخارجين من جزيرة العرب وهي وجود العين والحاء في لغتهم وقد خرج البربر من جزيرة العرب وأسسوا مملكة في بلاد الشام واسم ملكها جالوت وهو مذكور في القرآن الكريم في سورة البقرة وهو الذي قتله داوود عليه السلام ثم انتقلوا إلى الشمال الافريقي والعرب والبربر جنس واحد ولا ينبئك مثل خبير.

(1) نسبة لي « البجنس Albigens وكانوا خوارج على الدين المسيحي ومبتدعين فيه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكانت عقيدتهم بالزهد والتقوى ؛ ولكنهم كانوا يخالفون القساوسة وينقمون عليهم ما كانوا يرتكبونه من الفساد. فاتخذ القسيسون وفي مقدمتهم البابا وعذبوهم واشد العذاب وكانت غاية هؤلاء القسيسين الاستيلاء على الماديات من متاع الحياة الدنيا لا غير. ونصبوا مجازر ذبحوا فيها خلقا كثيرا وقتلوهم تقتيلا فظيعا. وكان الالبجينيون قد أخذوا بشيء من المدنية، ولكن المذهب الكاثليكي وقف عقبة كؤودا في طريقهم وكان البابا انوسنت الثالث المغرور قد اعلن الحرب الدينية عليهم. فظهرت حينئذ صفحة من أفجع صفحات التاريخ، وابرزت المصبية نفسها في افظع صورة وأحلكها. وقتلوا آلافا من أولئك المساكين. ومن لمعلوم أن الالبجينيين دافعوا عن انفسهم دفاع المستميت ومع أن الكنيسة اجمعت جميع قواها عليهم فقد خسرت كثيرا من العدد والعدد حتى كسرت شوكتهم واحرقت منهم مائتين في يوم واحد. وأصبح تاريخهم احلك صفحة من العصور المظلمة.

(2) يعني انه بمجرد حمل الصليب والتوجه لغزو المخالفين يحل للغازي كل شيء يريده فيمن يغزوهم.

رميما. لأنهم كما قال سكوت « كانوا يعتقدون اعتقادا جازما ان تلك الآلات خطرة ويظنون انها آلات جهنمية لأعمال السحر واستخدام العفاريت ». وأخرجوا الكتب وكانت لا تحصى كثرة وجعلوها أكواما في الأزقة وأوقدوا فيها النيران. وأسلمت القصور المشيدة الجميلة والحدائق البهيجة لأيدي الخراب والضياع. ولما رأى الملك أنه ليس له قصر ملكي في المدينة التي كانت أكثر المدن مساكن عالية وقصورا فخيمة أفاق من سباته وبعث في طلب الصناع المتفننين والعملة من المغربيين فبنوا له « الْكَزَرْ » القصر الذي نزوره اليوم. وحجراته مثل المقصورة المسماة « هال اوف امبسد ورز — مقصورة السفراء » تخبرنا بأن المغربيين كانوا يعرفون كيف يعيشون.

استراح الاسبانيون قرنين كاملين وبقي الشعبان عائشين في سلم وأمان كالاخوين. وكان الاسباني بطبعه يحب أن يعيش مع جيرانه في سلام ويعظم الشعب الذي كان يراه بالغا ذروة العبقرية. ولكن القسيسين الذين بلغوا في العصبية الحضيض الأسفل كانوا يضادون ذلك الميل. فما زالوا يفتلون للحكام في الذروة والغارب ويحرضونهم على عدم التسامح في المدن النصرانية الجديدة مع القوم الذين هم بناتها وهم مزينوها، وأخيرا نجحوا في مطلبهم. وهو أن كل مسلم يوجد في بلدانهم يخير بين أمرين إما التعميد والتنصر واما الجلاء [1]. فاختار المغربيون الجلاء فرارا بدينهم وشعبهم ليعيشوا في جو أمان واطمئنان. فنشأت منهم مملكة في ناحية غرناطة عدد نفوسها ثلاثة ملايين وكان ذلك في القرن الخامس عشر وهو من عجائب الدنيا ومن مخازي الأمم النصرانية. فالبلاد التي نشاهدها اليوم في غاية الفقر والخراب كانت هي فردوس أوربة في زمان المغربيين.

وقد جلب المغربيون مياه كثيرة من الجبال وأعالي الأنهار بسبب علمهم ونشاطهم اللذين ليس لهما نظير فوصلت الفلاحة والغرس بذلك إلى أوج رقيهما.

---

(1) ويناسب هذا المقام ما ورد في كتاب (ماذر اميركا — الأم اميركا) تأليف الدكتور بوز الهندي فيما نقله عن القسيس الاميركي كيلكي Gilkey من أكابر علماء أميركا وهذا معناه : — هل نحن الاميركيين نصارى حقيقة أم الشرقيون هم النصارى حقا ؟ نرى أن الشرقيين يؤمنون بالمسيح ويتبعون أوامره، ويستنكفون عن أتباع مذاهب الغربيين فيجب علينا معشر الاميركيين اما ان نثبت ادعاءاتنا وأما نتركها بتة ؛ لأننا نرى في الشرق أن الأجنبي يعامل بكل لطف واحترام ويبذلون كل جهد في اسعافه بما يحتاج إليه. وكم واحد منا يعامل الشرقيين كما ينبغي أن يعامل به البشر. ؟

قال سكوت : « لقد فاقت في علو قدرها وأهميتها في نتائجها العملية جهود جميع الامم المتقدمة والمتأخرة » قلت ولاشك أن هذه مبالغة في التقدير، ولا يقبل هذا الكلام حتى لو قيل قبل عشرين سنة، لكن مقابلة زراعة المغربيين بما كانت عليه أوربا من البؤس والعدم على وجه العموم تجعل لها أعظم وقع في النفس. والنتيجة أن الأقوات كانت كثيرة ورخيصة في الاندلس وكانت انواعا مختلفة وصارت غرناطة مثل قرطبة غنية وجميلة جداً. وكانت جنات الكرم والتوت الواسعة تؤتى أهلها احسن الخمور وأجود الحرير. وكانت الفرض [1] التي وراء الجبال على البحر المحيط تمدهم بجميع الطُّرَف ومواد النعمة والرفاهية النادرة التي كانت توجد في قرطبة. وكانت الصناعات المغربية أيضا في اوج ارتقائها وكانت هناك مقادير عظام من الجواهر تجعل فيها من الزينة والزخرفة مالا يأتي عليه الوصف وكان ذلك الزخرف في الاسلحة البديعة والحلل الفاخرة والأثاث النفيس.

ومن حسن الحظ بقي قصر الحمراء الملكي ليرينا الجلالة والتأنق والابداع في فنون المغربيين. وحتى هذه الدرة أصابها ما أصابها على يد الاسبانيين وكانت سائرة في طريق الخراب لو لا ان بقية أوربا وأمريكا اجبروهم على أن يقنوا شيئا من الحياء. وحتى في هذا اليوم يجد فيها الانسان معنى هذا اللفظ « أرض عبقر » حين يخرج من دهليزها المظلم الى عرصة الأسود. فيرى سواري المرمر الدقيقة كأغصان البان ويتملى بالنظر الى سطور الاساطين المستقيمة وسقوفها المصبوغة بالالوان الزاهية اذا نظرت إليها خلتها زرابي فارسية مرقشة، أو رياض أزهار بهيجة قد اشتبكت فيها أشجار الصناعة العجيبة . ولها طنوف مشرفة قد أفرغت في قوالب بديعة يحار الواصف في وصفها. وأما جدرانها ففيها من الترقيش العربي والتشجير والزخرف والامثال والحكم المسطورة بأجمل شكل شيء يذهل العقول ويروع الناظرين. ولكن ينبغي لنا أن نتصورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر حين كانت الثياب التي ترى فيها كلها من الحرير الخالص وحين كانت جدرانها تتلألأ بالوان اللَّازَوَرْدْ والأَرْجُوَانْ والذهب، وحين كان الآس والاترج والورد، ومباخر الفضة يحترق فيها

---

(1) تعرف عند العامة بالموانىء

عود الطيب تفعم جوها بالروائح الطيبة. وكانت على الجبل المجاور لها وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام التي لا تقل جمالا وابداعا في الذوق عن الحمراء، الا انها اقل تلألؤا بالذهب والفضة والجواهر. قال سكوت متلهفا « ماذا عوضنا الغازي الصليبي القشتالي الهمجي عن تلك القصور ؟ واي فائدة يجنيها النوع البشري من وراء تخريبها ؟ ».

فليجب عن هذا السؤال أولئك الذين يمجدون طرد الكفار من أروبة. وكان الاسبانيون قد أحرزوا جندا عظيما. أما المغربيون فقد نقص عددهم من ثلاثين مليونا إلى ثلاثة ملايين. ولم يكن ملك اسبانيا فرديناند [1] وملكتها ايزابلا [2] عديمي شهامة وعظمة كشهامة المغربيين وعظمتهم فقط، بل لم يكن لهما شيء من المروءة العامة والحياء. اغار هذا الملك على أموالهم — أموال المسلمين — فنهبها وتركهم يموتون جوعا وبذلك قهرهم وألجأهم الى التسليم. حتى الناقدة النصرانية ليدي تشارلوت يونج رق قلبها لما اصاب المغربيين فقالت في (ص 190) تذكر العهود والمواثيق التي أعطاها الاسبانيون المغربيين والشروط التي اشترطها المور عليهم ما نصه [3] : —

(1) فرديناند الخامس Ferdinand ملك قسطيلة وليون (1452 — 1516) تزوج بابنة عمه ايزابلا سنة 1469 : وكانت ابنة الملك هنري الرابع. وانما تزوج بها ليتخذ ذلك وسيلة الى نيل الملك بلا مشقة. ولما مات الملك المذكور اجتهد فرديناند في أن ينادي نفسه ملكا ؛ ولكن ايزابلا كانت داهية مكارة فرأى فرديناند أنه لا يتمكن من اخضاعها. فاتفق معها على أن يتشاركا في الحكم. وكانت اخلاقه سيئة يدل على ذلك الاعمال الرذيلة التي ملأ بها حياته. فمنها نقض عهده الذي اعطاه إلى كريستوفر كولومبوس وسوء ظنه في زيمنس وبالرمان الشهير الملقب « بالرمان الكبير » ويقال : انه كان يفتخر بأنه خدع لويس الثاني عشر ملك فرنسة اثنتي عشرة مرة ومن المحقق انه ان كلما عقد معاهدة مع أي شخص كان يترك فيها الفاظا يمكنه ان يتخذها وسيلة لنقض العهد. واعظم دليل على خبثه انه لما ماتت ايزابلا ادعى انه الوصي على ابنتها المجنونة التي لها الحق ان ترث امها في الملك واخذ ذلك ذريعة إلى الاستقلال بالملك ولم يبال بزوجها فيليب اميها بزبورق ... لكنه اخفق في مكره لأن الأمراء عارضوه في ذلك. ولم يلبث فيليب أن مات فتم لفرديناند ما اراد واستحوذ على الملك. وكان يضطهد العلماء الذين لا يوافقونه .

(2) ايزابلا Isabella (1451 — 1504) ملكة قسطيلة. استولت على الملك سنة 1474 داهية مكارة متعصبة. بذلت كل جهدها في تجديد المحنة وتعذيب المسلمين واليهود. وارتكبت خطايا كثيرة باسم الدين. وأما أحوالها الخاصة فلم تكن مما تغبط عليه : لأنها كانت تفخر بأنها لم تغتسل في حياتها إلا مرتين يوم ولادتها سنة 1451 وليلة عرسها سنة 1459. وغسلت حين ماتت سنة 1504 فتمت لها الغسلة الثالثة والحقيقة أنها لم تغتسل الا مرة واحدة وهي في ليلة عرسها. لأن غسلها يوم ولادتها وغسلها يوم موتها ليس من عملها.

(3) وقد رأينا كلاما في « نفح الطيب » للمقري أشار فيه إلى كيف دخل الاسبانيون غرناطة وذكر بعض شروط الصلح

« تكون غرناطة حرما آمنا لكل من يلتجيء اليها من المسلمين من جميع الاقطار، ويكون لابي عبد الله (الملك) ضيعة في أرض (البوجارا ــ البشرات) وأن جميع سكان البلد حتى الذين أسلموا من النصارى يكونون آمنين على انفسهم وأموالهم وبيوتهم وسلاحهم وخيلهم ولا يسلمون الا الأسلحة النارية، وأن يتمسكوا بشريعتهم وعاداتهم ولغتهم ولباسهم، وأن تكون مساجدهم مصونة من أي استعمال في غير عبادتهم. وأن دعاويهم تفصل على أيدي قضاتهم المحكمين من قبل الحكام الاسبانيين، وانهم يؤدون لملك قشتالة من الخراج مثل ما كانوا يدفعون لملوكهم لا غير، وانهم يعفون من دفع الخراج مدة ثلاث سنين ليستجمعوا ويستردوا

= فأحببنا اثباته هنا ليكون شاهدا لما ذكره المصنف وشارحا لما خفي من كلامه. ففي المجلد الثاني ص : 615 مانصه : « وفي ثاني ربيع الأول سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان وهنا خوف الغدر وكانت الشروط سبعة وستين منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم، ومنها اقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد والأوقاف كما كانت، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا، وأن لا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم وأن يفتك من أسر في غرناطة من حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم ومن هرب من المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، ولا يقهر من أسلم من النصارى على الرجوع لدينهم وان من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له الحاكم من المسلمين وآخر من النصارى فإن أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلبه في أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، و لا يسفر لجهة من الجهات. ولا يزيد على المغارم المعتادة وترفع عنه جميع المظالم والمغارم المحدثة : ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين أو لا يدخل مسجدا من مساجدهم : ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا عن نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ــ لعله البابا ــ ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركناه... ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له في سكناه بأندرش فانصرف اليها ثم احتال ــ يعني الفونسو ــ في ارتحاله لبر العدوة وأظهر أنه ذلك يطلب منه. وكتب لصاحب المرية : « ساعة وصول كتابي هذا لاسبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة « يعني مراكش القطر » ، ذلك : حدثنا بيكن في بعض كتبه عما جرى من جماعة من القسيسين الكاثوليكين وذلك أنهم عزموا على أن يعرفوا كم عدد أسنان الحصان، فراجعوا جميع ما عندهم من آثار آباء الكنيسة الأولين من الكتب ثم تصفحوا كتاب ارسطو، ولكنهم لم يظفروا بمطلوبهم فاتفق رأيهم على أن عدد أسنان الحصان سر من الأسرار الأبدية لانه لن توجد بينة لا تاريخية ولا دينية تدل على عددها، وأخيرا قام تلميذ متهور فارتأى رأيا وهو أن يعمدوا الى الحصان ويعدوا أسنانه، فقامت قيامة القسيسين وأجمعوا على أن الشيطان قد استحوذ على هذا التلميذ المتهور، لأنه يريد ان يتخذ سبيلا الى حقيقة غير سبيل آباء الكنيسة الصالحين.

ما فقدوا من أموالهم بسبب الحرب والحصار ».

ثم أخذت المؤلفة النصرانية المسكينه تتململ في سائر ما بقي من صفحات كتابها من أجل غدر الملك والملكة الاسبانيين ونقض عهودهما التي أعطياها المغربيين ، لم تشعر الملكة الناسكة بوجوب معاملة المغربيين بمقتضى الشرف ، بل لم تشعر إلا بشيء واحد وهو أنه يجب عليها أن تؤسس (مملكة نصرانية) كاد الناس يتميزون من الغيظ ، كيف يتولى عليهم حاكم محمدي كافر أخذ من المسلمين أحد مساجدهم وجعل كنيسة . قالت المؤلفة المذكورة (وكان ذلك نقداً للعهود ثم نفى اليهود وعوملوا بأعظم همجية وحشية [1]

ولم ينجح القسيسون في تنصير المغربيين مع انهم أحرقوا مصاحفهم وكتبهم كلها علانية. وجعل أمر المسلمين من الوجهة الدينية الى رئيس أساقفة طليطلة « المقدس » زيمنس... وباختصار قد نقض كل سطر من سطور المعاهدة. وغدر الاسبانيون وأهانوا عهودهم، فهاجر قسم عظيم من المغربيين تاركين وراءهم كلما يملكونه، وذهبوا الى افريقية. ولكن القسم الأعظم بقوا هناك ينافقون باظهار النصرانية. ومن لم يقبل النفاق منهم صاروا عبيدا للنصارى الغادرين. ثم جاءت المحنة (محاكم التفتيش) فحرم عليهم كل شيء من أمور دينهم حتى الاغتسال في حماماتهم، ونهبت مئات من بيوت المغربيين واليهود وطردوا من البلاد التي مدنوها وعمروها، ولم يبق هناك منهم الا العجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فكانوا يسجدون لصورة المسيح في الملا ويبصقون عليه في خلواتهم [2] .

---

(1) ولا يستغرب ذلك ؛ لأن البر والرحمة في نظر أولئك القوم كانا من الرذائل لا من الفضائل. وناهيك بما ذكره الدكتور يوز في كتابه (ماذرا اميركا) وهذا معناه : — رأيت عجوزا في غداة باردة تبحث في كوم من الزبالة أمام الفندق وتلتقط فضلات الطعام منها جاهدة نفسها في ذلك، فلم أتحمل رؤية ذلك المنظر المحزن فذهبت إليها ودفعت لها قليلا من الدراهم ؛ ولما علم بذلك سكان الفندق لم يقابلوني إلا بالسخرية والاستهزاء وقالوا : لا تنبغي اعانة هؤلاء البؤساء بأي وجه من الوجوه. وقد تفضلوا علي بهذه النصيحة مجانا.

(2) ولا غرابة في ذلك لأن الكاثليكيين لم يحسنوا معاملة المسلمين ولم يكن لهم علم فكانت أعمالهم واقوالهم ناشئة عن الجهل بعيدة عن التحقيق. ومثال ذلك ما رأيناه من كتاب (ماذر أميركا — الأم اميركا) تأليف الدكتور بوز الهندي. وهو من المضحكات العجيبة وهذه ترجمة ولم يقتصر على اتلاف جميع النسخ التي ظفر بها من القرآن بل كان يتلف كلما وصلت اليه يده من الكتب العلمية والأدبية. وهو الذي أمر بنص محاكم المحنة وتعذيب المسلمين تعذيبا كاد

لا يوجد إله وانما يوجد فكر الانسان [1] الذي اوقد مصباحه اليونانيون جدد اضاءته المغربيون وهو اليوم أقوى من أن يقدر أي بابا على قتله. وبينما فرديناند وايزابلا يختمان عهد القرون الوسطى تحت سلطان البابا اذ بالنهضة الاوربية الحديثة تأتي على ذلك البنيان من القواعد فتنسفه نسفا وتمحو سلطانه من ايطالية. ويقول ستانلي لين بول المؤرخ اليقظ « بينما كان زينس [2] رئيس محاكم المحنة في اسبانيا يصدر أوامره بمنع المسلمين من الاستحمام واختيار صفة الوسخ التي

= يحدث ثورة. وحينئذ ظهر بمظهره الحقيقي. واخذ يعيش عيشة الملوك. حتى انه لما مات فرديناند قام زيمنس ونصب نفسه نائبا للملك شارل لأنه كان غائبا. تمتع برئاسة الوزارة عشرين سنة ثم عزل ومات غما من أجل عزله. وكان قاسي القلب شديد الحقد لكل من يخالفه في الرأي ولو كان من أهل دينه. وكان رئيسا لمحاكم المحنة فقتل ألفين وخمسمائة شخص وتحمل اثم دمائهم في ذمته. ولا شك ان أعماله القاسية أحدثت ثورة ؛ ولكنه قضى عليها بمكره. وكان لا يستنكف أن يكون قائدا للجيش بنفسه متى اقتضت المصلحة ذلك.

(1) لقد ترددنا في اثبات هذه العبارة البشيعة الشنيعة واستكرنا ادخالها في كتابنا غاية الاستنكار وهممنا بحذفها ثم بدالنا اثباتها حرصا على الامانة في النقل واطلاع القراء على ما يقال كيفما كان لأن العلم بما يقوله مؤلف كبير مثل هذا في بلاد كأميركا ليس بسر يخفى وقد ينافي ذلك القرآن فان الله تعالى حكى عن أهل الكفر جحودهم فقال سبحانه **﴿ وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم أن هم الا يظنون ﴾** وقال تعالى **﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ﴾** وقال تعالى **﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾** إلى غير ذلك ونحن نقول :

وكيف يصح في الاذهان شيء — اذا احتاج النهار الى دليل
وفي كل شيء له آية — تدل على انه الواحد

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وأما قول المؤلف ان المسلمين كانوا يصفقون على المسيح في خلواتهم فهو خطأ منه فان المسلمين من أركان ايمانهم تعظيم المسيح والايمان بأنه روح الله كلمته ومن أخل بهذا فليس بمسلم أما التماثيل والاصنام فلا يعظمها المسلمون كيفما كانت وإن عبدها غيرهم.

(2) زيمنس XIMENS « 1437 — 1517 » كان رئيس الاساقفة وفي أوائل أيامه وقعت عدواة بينه وبين المطران الكبير في طليطلة فحبس مدة من أجل مكائده. ثم تعين قسيسا خاصا لسماع اعترافات ايزابلا. وكان يتظاهر بالزهد والتقشف والورع الكاذب. ولما استولى فرديناند وايزابلا على غرناطة دعواه ليكون في خدمتهما هناك. وهو الذي أشار عليهما بالكيد للمسلمين والغدر بهم.

يتصف بها فاتحوهم [1] كان نصف أهل أوربة يرفضون دعاوي الفاتيكان ويتخذونها سخرياً وكان العلماء يضمون أساس العلم الحديث والآن قد درسنا القوة الممدنة العظيمة الأولى التي جاءت إلى أوربة الباربارية ، ثم تلتها النهضة ثم أشرقت أنوار الاصلاح وورفت ظلاله ، وأخيراً ظهرت المصادر الصحيحة للعلم في أواخر العصر الأوسط .

---

(1) نظافة البدن التي كان الاقدمون يعتنون بها كل الاعتناء أهملت كل الاهمال بعد انقراض دولة الروم حتى أن أهل أوربا لم يكونوا يغتسلون الا في أحوال خاصة وناهيك انهم كانوا يفرضون الغسل على من يرد الدخول في جماعة (بايتس) وهم أمراء الحروب الصليبية ولذلك كانوا يسمونهم فرسان الحمام. وكان الملوك والملكات يقتدون برعاياهم في عدم النظافة حتى أن الملك العظيم لويس الرابع عشر لم يغتسل قط، بل كان يكتفي بالادهان بالعطور ولم تكن توجد حمامات في قصور الامراء والأغنياء الا في أواخر القرن التاسع عشر.

خاتمة الكتاب

قال مترجم ، الكتاب محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي عفا الله عنه ، هذا آخر مدنية المغربيين في الأندلس وهو الاسم الذي اختاره المؤلف لكتابه فعسى ان ينتفع به المغربيون والمشرقيون وجميع المسلمين في الأرض ، فيشمروا عن ساق الجد ويحيون ميراثهم ويردون مجدهم الذي فقدوه بإعراضهم عن الكتاب والسنة والتخلق بأخلاقهما والحكم بهما في كل القضايا فيرد الله لهم مجدهم الغابر وينصرهم على كل عدو للاسلام وإن عظمت قوته كما نصرهم من قبل على الأوربيين الاسبانيين والفرنسيين فنشروا العلم ، وأخرجوا أولئك الأقوام من الظلمات إلى النور . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فهرست المقدمــة

فهرست الكتاب

الفصــل الأول ـ الهـلال والصليـب ـ

الفصـل الثانـي ــ المور في أوج مجدهم ــ

الفصل الثالث ـ مدنية النور والحب بحريط ـ

الفصل الرابع ـ في علوم العرب وآدابهم ـ

الفصل الخامس ــ في أعمال اليهود ــ

الفصل السادس ــ زمان المحنة ومحاكمها ــ



فهرست الحاشيـــة



المصادر التي رجعنا إليها في تأليف هذه الرسالة

(1) معجم البلدان لياقوت الحمري.

(2) تاريخ العرب في إسبانيا لمحمد عبد الله عنان.

(3) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.

(4) ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام لدوري ترجمة كامل الكيلاني.

(5) رحلة الأندلس تأليف محمد لبيب بتنوني.

(6) عابر الأندلس وحاضرها تأليف محمد كرد علي.

(7) قاموس الجغرافية القديمة لأحمد زكي.